

الباب الاول

طريق الهند

الفصل الاول

الخليج الفارسي

(١) نظرة في جغرافية الخليج :

الخليج الفارسي فجوة بين هضبة إيران وبلاد العرب ، تبلغ مساحتها ٩٧٠٠٠ ميل مربع ، تكتنفها الجبل من الشرق ومن جهة عمان في الجنوب الغربي . وتقع سواحل الخليج في ثلاثة أقسام : السواحل العربية والسواحل الشمالية والسواحل الفارسية^(١) .

أما السواحل العربية فتشتمل على الكويت والاحساء والقطر والسواحل المهادنة وسلاطنة مسقط ، وهي منبسطة تكتنفها التلال ، وأكثرها قاحل إلا بقاعاً صغيرة كالارض الكائنة قرب الجهرة ، ووادي الاحساء والقطيف اللتين تفتت فيهما النخيل وتغمرها مياه الينابيع فتجعل منها أرضاً صالحة لزراعة الرز ، ووادي الميه الواقع في طرف الاحساء الشمالي وبقاعاً اخرى خصبة كائنة على نهايات الوديان القريبة من أراضي عمان . وأهم ما في الجزء الجنوبي منها هضبة تمتد جنوباً وازية للساحل حتى تصل رأس الحد ، يفصل شمالها عن البحر سهل الباطنة الذي يبلغ طوله ١٥٠ ميلاً وينتهي بالقرب من مسقط ، وفيه بقاع خصبة تكثر فيها واحات النخيل . وفي هذا القسم تماريح كثيرة لا يصلح منها لرسو السفن غير البحرين والكويت ومسقط ومطهر ، ويحاذيه عدد غير قليل من الجزر أغلبها صخرية جرداء قائمة في البحر

(١) ص ٢٠٧ من : Wilson, Lt-Colonel Sir Arnold, F. , The Persian Gulf (Oxford 1928)

إلا جزيرة البحرين التي تبلغ من الطول ثلاثين ميلاً ومن العرض عشرة أميال وفي نهايتها الشمالية قطعة خصبة يبلغ عرضها ثلاثة أميال مغطاة بأشجار النخيل .

وتتألف سواحل الخليج الشمالية من سواحل العراق وعربستان المكونة من سهول مستوية جرداء ، إلا أضاف شط العرب وبعض شواطئ كارون . والسواحل التي في رأس الخليج منخفضة الأراضي تكسوها المستنقعات ، وأهم فجواتها مصب شط العرب وخور موسى وخور الزبير . وليس في هذا القسم من المراسي غير مرسى بندر ديلام للسفن الصغيرة . وأهم الجزر المحاذية له جزيرة بويان الواقعة في الزاوية الغربية الشمالية وجزيرة عبادان الكائفة بالقرب من مصب شط العرب . وأهم موانئه اثنان ميناء البصرة وميناء المحمرة ، يقع الأول على بعد سبعين ميلاً من مصب شط العرب ، والثاني على ترعة الحفار عند ملتقى نهر كارون بهذا الشط وقد أصبح في استطاعة البواخر البحرية الكبيرة الوصول إلى هذين المينائين بعد حفر سد الفاو عام ١٩٢٧ . وتمتد السواحل الفارسية بين بندر ديلام وحدود بلوچستان ، وفيها عدة مراسي متصلة بطرق القوافل التي تخترق هضبة إيران ، أهمها : مرفأ بوشهر الذي يبعد مائة وأربعين ميلاً عن مصب شط العرب ، وبندر عباس وهو الميناء الطبيعي للناسم الجنوبي الشرقي من بلاد فارس لاتصاله بطرق القوافل ، ولنجه التي تبعد ستة وتسعين ميلاً عن بوشهر ، وجسك الواقعة جنوب شرق بندر عباس . ويمتد بمحاذاة هذه السواحل عدد من الجزر منها جزيرة هرمز والجزيرة الطويلة (قشم) ولرك وشيخ شعيب وقيس وهنجام .

وأغلب سكان السواحل الفارسية عرب امتزجوا بالفرس واستمعهم
معظمهم ففشت بينهم اللغة الفارسية ؛ ويرجع أصلهم الى قبائل كعب التي
هاجرت من نجد الى ضفاف شط العرب وعربستان في القرن السابع
عشر^(١) ؛ ومنهم من ينتسب الى الدواسر والعجمان والبو علي وشمر ، وقد
عبروا الى هذه السواحل من السواحل العربية المقابلة . وفي السواحل الواقعة
على مقربة من بلوچستان قبائل عربية نزحت اليها من السند ، قيل انها من
العرب الذين افتتحوا الهند في العهد الاموي .

(ب) فذلكة في تاريخ الخليج :

لوانتي المره نظرة على خليج فارس بما فيه من جزر قاحلة مبعثرة قرب
سواحله الجرداء لوجد ان للانكليز في كل زاوية من زواياه مركز نفوذ وان
اليد للمستعمرة قد قبضت على رقاب معظم الشيوخ والامراء فيه فجعلتهم طوع
ارادتها . ويرجع تاريخ هذا الاستعمار الى بداية القرن السادس عشر ويتصل
باكتشاف رأس الرجاء الصالح واستعمار الهند .

كان الخليج بعد سقوط الدولة العربية ساحة للمعارك التي نشبت بين
عدد كبير من شيوخ القبائل العربية الذين تنازعوا السلطة فيما بينهم وأغاروا
على بعضهم لامتلاك الاراضي . وبينما هم في نزاعهم هذا اذ داهمهم البرتغاليون

(١) Wilson ص ١٨٧

(٢) ص ٣٤ من : Persian Gulf, Handbook Prepared under the direction of the Historical Section of The Foreign Office. No. 76. London, His Majesty's Stationary Office, 1920

واستفادوا من نشدت قواهم فاستولوا على كثير من المراكز الخليجية في الخليج .
ثم جاء الانكليز بعد ذلك وتمازجوا مع الفرس فتمكفوا من انتزاع
النفوذ من أيدي البرتغاليين . وجاء في هذا الاثناء اتجار الهولندي ببحث
عن المال فانضم الى جهة الفرس والانكليز .

ولما هوت الامبراطورية البرتغالية على البرتغاليون الاذوار فاصبح الخليج
في قبضة الفرس . ثم آل النفوذ فيه الى الانكليز وقوى سلطانهم في جميع
أرجائه سيما بعد ان تحولت مصالحهم التجارية الى مصالح سياسية عقيب
استعمارهم الهند .

وفيما يلي نبذة عن تاريخ أهم مراكز الخليج تبين للقاري كيف سار
الاستعمار في جهاته وكيف انتهى الامر بسيطرة الانكليز على شؤونه .

هرمز : كان اسم هرمز يطلق على مدينة قائمة على الساحل
المقابل لجزيرة هرمز في محل يدعى الآن ميناب ، قد شيدتها الملك اردشير
بابكان في أوائل القرن الثالث^(١) . ثم بنى العرب في القرون العاشرة مدينة
سميت بمين الاسم (اكتشفت آثارها شرق بندر عباس) بقوا فيها الى ان
أخرجهم منها المغول فالتجأوا الى جزيرة هرمز الحالية وكانت تدعى يومئذ
زابرون أو (جبرون) فبنى فيها أميرهم قطب الدين في القرن الثالث عشر
مدينة أطلق عليها اسم هرمز تحليداً لذكر موطنهم الاول^(٢) .

(١) Wilson ص ١٠٢ و ص ١١٣ ج ٢ من : Cutzon, Hen. G. N.
(M. P.) Persia and The Persian Question, 2 Vols. London 1892
(٢) Cutzon ج ٢ ص ١١٤ و Wilson ص ١٠٤ . وفي هذا الكتاب

وامتد سلطان الامارة العربية الجديدة الى البحرين وباقى مرا كز الخليج
وأصبحت صاحبة النفوذ في السواحل الفارسية والعربية وبقيت زاهرة بعمرائها
حتى احتلها البرتغاليون سنة ١٥٠٥ فجملوا منها مركزاً تجارياً لهم بقوا فيه الى
ان أخرجهم منها الشاه عباس الاول بمونة الانكليز عام ١٦٢٢^(١). ثم أسس
الشاه عباس الاول مدينة بندر عباس (نسبة اليه) في محل مقابل للجزيرة
يدعى كبرون^(٢). وبذلك خسرت هرمز أهميتها التجارية فهجرها أهلها
فأصبحت صخرة جرداء لا أهمية لها الا لموقعها في مدخل الخليج^(٣). وقد
بقيت بندر عباس مركزاً للتجارة مدة قرن؛ وأسس فيها الانكليز
والهولنديون والفرنسيون مرا كز تجارتهم، وكان للأولين فيها امتيازات
خاصة لأنهم ساعدوا الشاه في طرد البرتغاليين، منها انهم كان لهم الحق في
رفع رايتهم على بيت وكيلهم فيها^(٤). فلما عمت الفوضى بلاد فارس بعد وفاة
نادر شاه غادر التجار الاجانب بندر عباس وأسسوا مرا كز تجارتهم في
البصرة وبوشهر^(٥).

مستط : اما مستط فهي جزء من عمان ، انفصلت عن الدولة العباسية
في القرن العاشر^(٦) وكونت من نفسها امارة مستقلة كان يحكمها أول الامر
امام ينتخبه الشعب ، ثم انحصرت الامارة في عائلة السيد ناصر بن المرشد

(١) ص ٢٧٩ ج ٢ من : Sykes, A History of Persia. 2 Vols.

(٢) Curzon ج ٢ ص ٤١٧ - ٤١٨

(٣) وهي تحريف كلمة « كمر ك » التركية . Sykes ج ٢ ص ٢٧٩

(٤) Curzon ج ٢ ص ٤٢١

(٥) Wilson ص ١٨٧ و Handbook

(٦) Handbook ص ٤٠

(١٦١٨ - ١٦٤٤) .

ولم تكن مسقط على شيء من الأهمية حتى اتخذها البرتغاليون مقراً
تجارياً لهم بعد خروجهم من هرمز سنة ١٦٢٢ . فلما تضائل نفوذهم نجح
أهل البلاد في طردهم منها عام ١٦٥٠ بعد نزاع دام زهاء عشر سنين^(١) ثم
راحوا يطاردونهم في البحار حتى اقتنعوا منهم المراكز التجارية في سواحل
أفريقية الشرقية . قويت يومئذ شوكة عرب عمان فخافهم شاه إيران وطلب
إلى شركة الهند أن تساعد في القضاء عليهم فلما أبت هاجمهم بجيشه واستولى
على مسقط عام ١٧٣٧ . وبقيت هذه المدينة خاضعة لفارس حتى قام من بين
أهلها رجل عصامي يدعى أحمد بن سعيد كان في أول أيامه يرعى الجمال فجمع
شقات قومه وطردهم الفرس فانتخبه الشعب اماماً تقديراً لفضله وهو رأس
العائلة السعيدية^(٢) .

وفي سنة ١٧٩٣ ثار سلطان بن أحمد على عمه الامام فاستولى على مسقط
وعلى ما يجاورها من اللواتي كطوره وبرقه وأقام له فيها إمارة مستقلة هي سلطنة
مسقط ، ولقب بالسيد سلطان وترجع أول صلوات بريطانيا بمسقط إلى
عهد^(٣) .

ولما قتل السيد سلطان في المعركة التي نشبت بينه وبين الجواسم سنة
١٨٠٤ خلفه ابنه السيد سعيد ، وقد دام حكمه حوالي الحسين سنة نشبت

(١) Wilson ص ١٥٤ - ١٥٥

(٢) ص ٢٥٣ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ من :

Miles, The Countries and Tribes of The Persian Gulf. Vol. 11

(٣) Wilson ص ٢٣٢

خلالها بينه وبين الوهابيين معارك كثيرة كانت مما ساعد على امتداد نفوذ الانكليز في بلاده فقد اتخذوا منها ذريعة للتدخل في شؤون العرب تدخلاً ظاهره الرغبة في التوسط للصلح بين المتحاربين وباطنه العمل على بسط نفوذهم وسيادتهم في البلاد . وقد استخدم الانكليز سفن مسقط لاختضاع عرب السواحل و بسط نفوذهم الاستعماري في الخليج (١) .

ومما سهل للانكليز التدخل في شؤون هذه السلطنة والسيطرة عليها انشقاق عائلة الامارة ، فكانوا يؤيدون من يأنسون منه الخضوع لمشيئتهم من أفراد العائلة ويساعدونه في تولية الحكم و يقيمون في وجه الآخرين العراقييل أو لا يمتزفون بهم . وقد توسلوا بالمعاهدات لتحقيق مآربهم فمقدوا مع السلطان سلسلة اتفاقيات استلوا في كل واحدة قسطاً من سيادته ؛ ففي سنة ١٨٦٤ عقدوا اتفاقية مد الاسلاك البرقية وفي سنة ١٨٦٥ عقدوا اتفاقية اخرى لعين الغرض وفي سنة ١٨٧٣ عقدوا « معاهدة مقاومة تجارة الرقيق » اشترطوا فيها على السلطان ان يسمح لهم باقامة ثلة من الجند في دار وكالتهم ، ثم عقدوا معاهدة « صداقة وتجارة » تمهد فيها السلطان ان لا يمنع توريد أو تصدير أية نوع من المواد التجارية وان لا يضع الرسوم الكركبة الا بموافقتهم . وكانت الحكومة الانكليزية قد نظرت قبل عقد هذه الاتفاقية في أمر رفع القناع عن أغراضها الحقيقية و اعلان الحماية على مسقط بالنظر للرغبة التي أظهرتها فرنسا في بسط نفوذها هناك ، لكنها فضلت الاستمرار على عقد المعاهدات فمقدت في سنة ١٨٩١ معاهدة جديدة أخذ

(١) Miles من ٢٢٥ و Curzon من ٤٢٦

فيها السلطان على نفسه « وخلفائه وذريته اليهود بان لا يتنازلوا عن أي جزء من أراضي امارتهم ولا يؤجرونها أو يبيعونها أو يأذنون باحتلاله لأحد غير بريطانيا العظمى »^(١). وكانت اتفاقية عام ١٨٧٣ تدفع الى السلطان مساعدة مالية سنوية اعتبرها أجراً لمساعدته ايها في مقاومة تجارة الرقيق واعتبرتها هي والدول الاوروبية الاخرى دليلاً على خضوعه وتابعيته لها^(٢).

البحرين : وهي الجزائر المشهورة بتجارة اللاؤل؛ يبالغ طول أكبرها ثلاثين ميلاً وعرضها عشرة أميال وفيها مدينة البحرين (أو المنامة) والمحرق والرفاع والحد والبديع، ويبلغ عدد سكانها المئتين الف نسمة^(٣). وقد ذكر الطبري ان القبائل العربية نزحت اليها في القرن الثالث قبل المسيح، وبقى الامراء العرب يحكمونها حتى أوائل القرن السادس عشر حينما استولى عليها البرتغاليون بعد ان خربوا المنامة سنة ١٥٢١^(٤). ولا تزال آثار حصنهم فيها باقية قرب « البلد القديم ».

بقى البرتغاليون في البحرين حتى أخرجهم منها الشاه عباس الاول سنة ١٦٢٢، وقد حكمها الفرس حتى عام ١٧٨٣ حيث استولى عليها عرب العتوب بعد ان عبروا اليها من الزبارة المقابلة لها على السواحل العربية. ثم

(١) Wilson ص ٢٣٧

(٢) ص ١٩٦ من : Eastle, Turkey, The Great Powers and the Baghdad Railway

و ص ٨ من : Dinn, British Interests in the Persian Gulf. New York 1924

(٣) Handbook ص ٣١ (احصاء سنة ١٩٢٠)

(٤) Wilson ص ٢٤٥ و Miles ص ١٥٤

هاجم البحرين بعد ذلك أمير مسقط فاستنجد أهلها الوهابيين فردوا الأمير عنها ولكن هؤلاء استولوا عليها ولم يخرجوا منها الا عام ١٨١٠^(١).

ان البحرين لم تكن مطمح أنظار أهل نجد وعمان فحسب فقد طمعت بالاستيلاء عليها فارس والدولة العثمانية وانكاثرة حتى أصبحت الجزيرة تتخبط بين أهواء الطامعين حتى قيل ان شيخها كان يرفع فوق قلعته في بعض الاحيان أعلام الدول الثلاث^(٢). ولما كانت انكاثرة أشد بأساً وأقوى عزماً من الدولتين الاخرين فقد ظفرت بمقاصدها، وكانت قد اتبعت مع البحرين عين الطريقة التي اتبعتها في جهات الخليج الاخرى فربطت الشيخ بسلسلة من المعاهدات كانت اولها معاهدة عقدتها سنة ١٨٢٠. ثم أرادت بعد منتصف القرن التاسع عشر ان تعلن حمايتها على الجزيرة تخلصاً من منافسيها، ولكنها عادت ففضلت الحماية المستورة فعقدت مع الشيخ عام ١٨٦١ معاهدة ألزمتها فيها ان يعرض كل ما يقع له من المشاكل على المقيم البريطاني وان يقنع بحمايتها فلا يحاول اعلان حرب أو مهاجمة أحد^(٣).

زار الكولونيل بيلي (Billy) المقيم البريطاني في الخليج شيخ البحرين أثناء حملة الاتراك على الاحساء، وأرسلت بريطانية السفن الحربية اليها،

(١) الريحاني ج ٢ ص ٢٢٦-٢٢٧ و Wilson ص ٢٤٧ و Curzon ج ٢

(٢) الريحاني ج ٢ ص ٢٣١. يقول الريحاني ان الشيخ محمد كان ينشر علمه في القلعة، علماً عثمانياً فوق البرج الغربي وعلماً ايرانياً فوق البرج الغربي

(٣) Wilson ص ٢٤٧

شهيداً للأتراك بعدم مهاجرتها ، فلم يفتربوا منها^(١) . وعقد الانكليز مع الشيخ عام ١٨٩٢ معاهدة تعهد فيها « ان لا يتنازل ولا يبيع ولا يؤجر ولا يأذن باحتلال أي جزء من أملاكه لغير بريطانيا » وعينوا عام ١٩٠٠ معاون وكيل سياسي لهم فيها ثم رفعوه سنة ١٩٠٤ الى درجة وكيل سياسي تثبیتاً لنفوذهم^(٢) .

السواحل المهادنة : ويبلغ طولها ثلاثمائة ميل ، وتمتد من العميد على حدود القطر في الجنوب الى رأس السكبة في سواحل عمان . وفيها خمسة وسبعون ألفاً من العرب المتحضرين ، يتعيشون على صيد الاسماك والغوص على الأولو ؛ وثمانية آلاف من الرحل . ويرجع أصلهم الى قبائل الجواسم والبو علي وبني ياس . وأهم مشايخ هذه السواحل : البوظي والديني وام السكاين والشرجة^(٣) .

كانت هذه السواحل مأوى للقرصان حتى دعيت « سواحل القرصان » ثم عقدت قبائلها المعاهدات مع بريطانيا فسميت بالسواحل المهادنة نسبة الى تلك المعاهدات . فان بريطانيا لما قررت توطيد نفوذها في الخليج الفارسي ، في أوائل القرن التاسع عشر ، سيرت على قبائل هذه السواحل حملات برية وبحرية فاجبرتها على عقد معاهدات ضمنّت للانكليز السيطرة على هذه

(١) Handbook ص ٤٨ و ص ٣٠٣ من :

Longrigg, S. H. , Four Centuries of Modern Iraq. London 1924

(٢) Handbook ص ٤٣

(٣) Curzon ج ٢ ص ٤٥٠

السواحل^(١) . ولما أرادت الدولة العثمانية ان تضم هذه السواحل الى أملاكها بعد مجيئ مدحت باشا الى العراق وسوقه حملة الاحساء سنة ١٨٧١ شعرت الحكومة الانكليزية بالحاجة الى معاهدة جديدة ، فعقدت سنة ١٨٩٢ ؛ معاهدة فيها تعهدت قبائل السواحل للمهادنة بما يلي :

(أولاً) ان لا تعقد أي اتفاقية مع غير بريطانية وان لا تتصل باي دولة سواها .

(ثانياً) ان لا تأذن لوكيل أي حكومة أجنبية بالاقامة في أراضيها الا بموافقة بريطانية .

(ثالثاً) ان لا تتنازل ولا تبيع ولا تؤجر ولا تأذن باحتلال أي جزء من أراضيها لغير بريطانية .

وقد بلغت الحكومة العثمانية بهذه الاتفاقية في سنة ١٨٩٣ وأعلنت بها حكومتا فارس وفرنسة سنة ١٩٠٣ . وقد جرت المحادثات مع هذه القبائل بواسطة المقيم ابريطاني في الخليج منذ تاريخ عقد هذه الاتفاقية^(٢) .

القطر : القطر شبه جزيرة بين العقير والعبيد ، يقطنها خمسة وعشرون ألفاً من القبائل المتحضرة وعدد غير مضبوط من الرحل . وقد ارتبطت قبائله بريطانية بمعاهدتي سنة ١٨٢٠ و ١٨٣٥ . ووقعت فيه سنة ١٨٦٧ اضطرابات نجمت عن مهاجمة شيوخ البحرين والبوذي اياه فتدخلت بريطانية في الامر واتخذت من هذه الاضطرابات ذريعة لتقييد شيخه بمعاهدة جديدة

(١) Handbook ص ٤٥

(٢) Handbook ص ٤٣

تعهد فيها ان لا يبني سفناً حربية وان يرفع كل ما ينشأ بينه وبين جيرانه من الاختلافات الى المقيم البريطاني في الخليج وان يعترف بسيادة البحرين^(١) .
 اراد الشيخ الخلاص من قيود هذه المعاهدة فاعلمت خضوعه للدولة العثمانية على اثر سوق مدحت باشا حملة الاحساء فميزته هذه قائماً مقاماً في القطر وأسست في لبداءة (أو اللدوحة) - وهي أهم وواني القطر - مرسى للسفن ومحطة للفحم وأزلات بها ثلثة من الجنود ؛ لكن الانكليز رفضوا الاعتراف بهذه الاجراءات فبقيت معلقة الى ان عقدت اتفاقية ٢٩ تموز سنة ١٩١٣ بين بريطانيا والحكومة العثمانية التي تنازلت بها الدولة العثمانية عن جميع ما كان لها من الحقوق في شبه جزيرة القطر .

الاحساء : في أوراق الدولة العثمانية التي ترجع الى عهد السلطان سليمان القانوني ما يدل على ان الاحساء كانت تعتبر جزءاً من الامبراطورية العثمانية ، غير ان نفوذ الدولة فيها كان ضئيلاً جداً وكانت تمثل الهدايا التي كان يقدمها امراء الاحساء الى ولاية بغداد^(٢) . ولكن والي البصرة حسن باشا أرسل في سنة ١٦٦٣ فرقة من بني خالد بقيادة أميرهم براك فاستولت عليها ثم استولى عليها الوهابيون وأعتبهم المصريون على عهد محمد علي باشا الكبير ثم ضمها مدحت باشا الى العراق . وهاجها ابن السعود عام ١٩١٣ وطرده حامية الدولة العثمانية منها . فلما عقدت معاهدة سنة ١٩١٣ بين الدولتين العثمانية والبريطانية اعترفت انكلترة بحمل الاحساء جزءاً من ولاية نجد التي عين ابن السعود والياً عليها .

(١) Handbook ص ٤٦

(٢) Longrigg ص ٣٨

وكانت هذه السواحل السبب المباشر في تكوين العلاقات بين بريطانيا
 ونجد فقد أخذت قبائلها - بعد ان اعتنقت المذهب الوهابي - تهاجم
 السفن باسم اماره نجد وكانت حكومة الهند تتجنب الاصطدام بهذه الامارة
 وتعتبر المعتدين من رجال القبائل الساحلية مسؤولين شخصياً عن أعمالهم الى
 ان هاجم الوهابيون البحرين عام ١٨٥٩ فتدخلت بريطانيا في الامر وتوترت
 العلاقات بينها وبين نجد وبقيت كذلك الى سنة ١٨٦٦ حيث تعهد الامير
 « ان لا يمس ولا يعترض أحداً من الرعايا البريطانيين القاطنين في
 السواحل » . ثم تحسنت العلاقات وتفوتت بين ابن السعود وحكومة الهند
 لما أخذت بريطانيا تمده بالامونة حتى اذا ما أرادت الدولة العثمانية على عهد
 مدحت باشا القضاء عليه ونشب الخلاف بينه وبين ابن الرشيد - وكانت
 الحكومة العثمانية تناصره - أخذت انكاثرة جانب ابن السعود .

المحمرة : كانت قبائل كعب قد نزحت الى عربستان في أواسط
 القرن الثامن عشر واستفادت من انشغال ايران بالمنازعات الداخلية القائمة
 حول العرش بعد وفاة نادرشاه فاستولت على الفلاحية ، فلما استقرت
 الاحوال الداخلية في بلاد فارس ووجدت هذه القبائل مقاومة من حكومة
 البلاد نزحت الى ضفة شط العرب الغربية واستقرت فيها وأخذت قوتها تنمو
 نمواً سريعاً أقلق الاتراك فتناوموها واستعانوا عليها بشركة الهند الشرقية
 ففجرت هذه عن اخضاعها وعجزت حكومة الهند عن تأديتها أيضاً . وقد
 نشجت قبائل كعب بنجاحها في صد قوى الحكومة العثمانية وشركة الهند
 الشرقية وحكومة الهند فسيطرت على جميع عربستان .

وحدث في سنة ١٨١٢ ان أذن رئيسها الشيخ قبيلة المحسن بالاقامة على مصب نهر كاروت فارس هذا بلدة المحمرة على بقايا مدينة كانت قائمة هناك قبل ستة قرون^(١). وما ان استقرت هذه القبيلة في موطنها الجديد حتى أخذت تنافس قبائل كعب وتسمى للتخلص من سيطرتهم ، فاتصلت بالانكليز - بعد ان أخذت شركة لنج (Lynch) تسير سفنها في نهر كارون - فقوى نفوذها حتى آل الامر اليها^(٢). ولما توسعت مصالح بريطانية في عربستان أسس الانكليز لهم وكالة قنصلية ودائرة بريد في المحمرة في سنة ١٨٩٠ ثم أبدلوا وكالة القنصلية بقنصلية وأسسوا وكالة في الاهواز في سنة ١٩٠٤^(٣).

وقد كانت حكومة فارس تقاوم شيخ المحمرة فالنجأ الى الانكليز وطلب حمايتهم فرفضوا وانكسرتهم أجابوه الى طلبه هذا عندما أحسوا من روسية رغبة في بسط نفوذها على عربستان و بعد ان اكتشف النفط فيها وتأسست شركة النفط الانكليزية الفارسية لاستخراجه عام ١٩٠٩^(٤). و بقيت الحالة كذلك الى ان قويت الحركة الوطنية في ايران بعد الحرب العامة قفضت على شيخ المحمرة وعلى النفوذ الاجنبي في عربستان .

الكويت : وهي من مواني الخليج الحديثة اذ لا يتجاوز تاريخها مائتي سنة ، أسستها قبائل العتوب بعد ان نزحت من جزيرة العرب في أوائل

(١) Leung ٢٤٨ ص

(٢) Handbook ص ٥٥

(٣) Wilson ص ٢٦٦ وقد غير هذا الوضع في السنة ١٩٢٧ فجعلت القنصلية في

الاهواز والوكالة في المحمرة

(٤) Handb ok ص ٥٧

القرن الثامن عشر . وتدعى الكويت بالقرن ايضاً نسبة الى شكل الفجوة التي تقوم عليها .

ومن العوامل التي ساعدت على توسع الكويت مهاجمة الفرس البصرة بين سنتي ١٧٧٦ و ١٧٧٩ اذ اضطرت الدوائر التجارية الاجنبية ان تنتقل اليها فاصبحت الميناء الذي تمر منه البضائع في طريقها الى بغداد وحلب وسورية والقسطنطينية . ولما استولى العتوب على البحرين شاركتها الكويت في تجارة البلاد العربية فساعدتها ذلك على النمو ايضاً . وعادت اليها الوكالة التجارية الانكليزية من البصرة عام ١٧٩٣ على اثر خلاف وقع بينها وبين السلطات التركية (١) .

وتذكر الحكومة الانكليزية في اوراقها الرسمية ان شيخها طلب الحماية البريطانية في السنة ١٨٠٥ تخلصاً من خطر الوهابيين فلم تجبه الى طلبه . ولم تكن رابطة الكويت بالدولة العثمانية قوية بالرغم من استمرار الشيخ على أداء الخراج لها حتى عام ١٨٢٩ . وقد مر بها الكولونيل بلي في السنة ١٨٦٥ في طريقه الى الرياض لمواجهة امير نجد فادرك اهميتها البحرية والتجارية وكتب بذلك الى حكومته (٢) .

على ان منشأ تاريخها السياسي يبدأ باواخر القرن التاسع عشر عندما دار البحث حول انشاء الخطوط الحديدية التي كانت يراد جعل نهايتها على الخليج الفارسي في الكويت . ففي السنة ١٨٩٨ قررت الحكومة البريطانية

(١) Wilson ص ٢٥١

(٢) Handbook ص ٥٢

بالنظر الى مساعي روسية وتركية لتوطيد نفوذها في الكويت ان تتبع سياسة جديدة ترمي الى التدخل في شؤون الامارة وتثبيت علاقتها بها . وحدث ان وقع الخلاف بين افراد اسرة الامارة واستنجد فريق منهم بالدولة العثمانية فالتجأ الفريق الآخر الى التقيم البريطاني في الخليج . فلما أرادت الدولة ان تنزع المشيخة من المعتصب الذي التجأ الى الانكليز ارسلت الحكومة الانكليزية بارادة حربية هددت بها الاتراك فلما تراجعوا عقدت (في ٢٣ كانون الثاني سنة ١٨٩٩) معاهدة مع الشيخ مبارك من طراز المعاهدات التي عقدتها مع امارات الخليج الاخرى تعهد بها الشيخ « ان لا يتنازل عن جزء من ممتلكاته وان لا يقبل وكلاء الدول الاجنبية الا بعد الحصول على موافقة بريطانية » . واعترفت الدولة العثمانية في سنة ١٩٠١ بمسألة بريطانية بالكويت وتعهدت ان لا ترسل اليها قوة حربية على ان لا تحتلها انكلترا او تعلن عليها الحماية^(١) . غير انها انشأت في سنة ١٩٠٢ مراكز عسكرية في ام القصر وصفون وبويان ، وكان الشيخ يدعي ان هذه الاماكن داخلية ضمن اراضيه ، فاهتمت انكلترا للامر وجرت بينها وبين الباب العالي مفاوضات انتهت بمقتضى اتفاقية سنة ١٩١٣ التي جعلت الامارة بموجبها قضاءً تابعاً للدولة العثمانية سماً واعترفت فيها الدولة بالاتفاقيات المعقودة بين بريطانيا والشيخ^(٢)

واسست بريطانيا في الكويت سنة ١٩١٤ وكالة سياسية واخذت

(١) الرحاني ج ٢ ص ١٥٨ - ١٥٩

(٢) Handbook ص ٥٤

تتدخل في انتخاب الشيخ وكان امر لا غنى لها عنه لتوطيد نفوذها .
 ولا بد لنا قبل ان ينتهي هذا البحث ان نأتي على ذكر الفاو لأنه ، وقع
 على جانب من الخطورة من وجهتي الدفاع والخبرات ؛ فهو باب العراق
 الحربي اذ يقع في نهاية شط العرب ؛ وهو ملائق الاسلاك البرية التي تصل
 الهند بأوروبا .

كان مدحت باشا اول من اهتم بالفاو فقبل منه عام ١٨٦٩ مركز
 قضاء يمتد بين خور الزبير وشط العرب . وأرادت الحكومة العثمانية ان تقيم
 فيه الاستحكامات الحربية قبيل الحرب العامة - خلافاً لنصوص معاهدة
 ارضروم الثانية - ولكن معارضة الانكليز والحكومة الفارسية حالت
 دون ذلك ^(١) . وكان قضاء الفاو اول بقعة احتلتها القوات البريطانية من
 اراضي العراق عند نشوب الحرب بينها وبين الدولة العثمانية في الحرب العامة .
 وقد حدثت ، وؤخراً بعض التبدلات في وضع الخليج سنأتي على ذكرها
 في الفصول الاخرى .

الفصل الثاني

المصالح التجارية تقدم المطامع السياسية

يبدأ تاريخ الاستعمار الاوربي باكتشاف رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٤٥ ، ووصول فاسكو داجاما الى كاليكوت عام ١٤٩٨ ، وكولومبس الى سواحل اميركا عام ١٤٩٢ . وينقسم الى دورين : الدور التجاري وينتهي بالثورة الفرنسية ؛ والدور الصناعي الرأسمالي او الاستعمار الحديث ويبدأ بالثورة الصناعية .

وقد مر تاريخ السياسة الانكليزية في الشرق في دورين مطابقتين لدوري الاستعمار ، يبدأ الاول منها باتصال الانكليز بايران عن الطريق التجاري الشمالي ، ويبدأ الثاني بالثورة الفرنسية وحروب نابليون . وسنتناول في هذا الفصل البحث في الدور الاول وهو الذي انحصرت فيه مصالح انكلترا في التجارة فلم تسمع خلاله لاستعمار ايران او العراق او ما يجاورها .

يعتبر وصول فاسكو داجاما الى الهند في مابس سنة ١٤٩٨ اول بوادر الانقلاب العالمي الحديث الذي أوجد الرأسمالية الاوربية الحديثة ومهد لها سبل السيادة على العالم . وكان من نتائجها ان اندرست طرق التجارة البرية بين الصين والهند والبحر الابيض المتوسط ، وهي يومئذ قوام الحياة الاقتصادية في الشرق الادنى والاوسط والسر فيما كان لهذه البلاد من المقام العالمي وما قام فيها من الحضارات ؛ وخسرت المدن الايطالية مثل جنوة والبندقية وبيزا وفلورنسه مكانتها التجارية ، وكانت القابضة على تجارة البحر الابيض

وواسطة الصلة بين الشرق والغرب ومركز الحياة الاوربية ، سواء الاجتماعية منها او السياسية .

كانت التجارة بين اوربا وآسيا قد توقفت بعد اكتساح البرابرة روما الغربية واستيلاء المسلمين على الشرق الادنى ، فلم يترك السبل التجارية في هذه الفترة غير افراد من اليهود والسوربين فلما جاء القرن العاشر اخذت بعض المدن في جنوب ايطاليا مثل برنديزي وباري وتارنتو ترسل السفن التجارية الى سواحل سورية ومصر ، وحذت حذوها مدن ايطاليا الاخرى مثل البندقية وجنوه وبيزا . ولما وقعت الحروب الصليبية تولت البندقية وجنوه وبيزا ، بالنظر لموقعها الجغرافي ، نقل الصليبيين وتموينهم فعاد عليها ذلك بالارباح الطائلة ومهد لها سبيل النمو والتوسع .

وكان من أهم ما يستورد من الشرق : التوابل من سيلان وصومطره والهند ، والاحجار الكريمة من ايران والهند وسيلان ، والكافور من صومطره وبورنيو ، والمسك من الصين ، والسكر والنبيل وخشب الصندل والعود من الهند ، والشب من آسيا الصغرى ؛ وكان الشرق يصدر الى اوربا كذلك الزجاج والخزف والحبر والاطاس والسجاد والنسيج الموشى ، وهي يومئذ مواد راجحة في المجتمع الاوربي الاقطاعي . وكان تجار المدن الايطالية يستبدلون في المواني السورية مثل حيفا وانطاكيا وفي القاهرة والاسكندرية ، بالمنسوجات الصوفية الخشنة والزرنيخ والسكر والذئبق والصفيرح الابيض والنحاس الاحمر والرصاص والمرجان . على ان هذه الصادرات لم تكن تسد ثمن المواد المستوردة فكانت اوربا تدفع الباقي بالذهب حتى تصاد

أن ينضب .

وكانت تجارة الشرق تنقل في ثلاثة طرق : الطريق الاوسط ؛ تنقل فيه البضائع بجرأ الى هرمز ومنها الى شط العرب فيبغداد ، فتحملها القوافل من بغداد الى حلب وانطاكيا والشام ، واحياناً الى القاهرة والاسكندرية . والطريق الجنوبي على البحر الاحمر ، تحمل فيه لبضائع على السفن العربية من الهند والشرق الاقصى الى سواحل لبحر الاحمر ومنها تنقلها القوافل الى القاهرة والاسكندرية ، وكانت السفن تستفيد من الرياح الموسمية فتقطع المسافة بين الهند ومصر في أقل من ثلاثة أشهر . والطريق لشمالي ، ويتألف من مسالك متشعبة من الهند والصين تلتقي في سمرقند وبخارى ثم تفرق مرة اخرى فيمتد بعضها نحو بحر الخزر ويقطع روسية الى سواحل البلطيق ، ويمتد البعض الآخر في استراخان الى ضفاف نهر الفولكا او يسير شرقاً نحو تبريز فارمينيا الى سواحل البحر الاسود ، وكانت أغلب القوافل التي تقطع هذه الطرق بين الشرق الاقصى وسواحل البحر الاسود بيد العرب .

كانت هذه التجارة تعود بالارباح الطائلة على المدن الايطالية وبعض المدن الجرمنية مثل نورمبرك واوسبرك واوالم وريكسبرك وكونستانس ، اذ كان تجارها يشترون البضائع من المدن الايطالية ويبيعونها في المانيا وانكلترا واسكندنافيه . فكان لذلك أثر عظيم في تحسن احوال المدن الايطالية والمدن الجرمنية وظهور بوادر النهضة الاوربية فيها . وكانت اوربا الغربية محرومة من خيرات هذه التجارة ، فساقها ذلك الى العمل على اكتشاف طرق جديدة توصلها الى الهند والشرق الاقصى . وكان البرتغال والاسبان

في مقدمة العاملين في هذه السبيل .

فلما اكتشف فاسكو داجاما الطريق الموصل الى الهند وعاد الى لشبونه عام ١٤٩٩ يحمل من البضائع ما يعادل ستة اضعاف نفقات بعثته اسرع البرتغال للسيطرة على هذا الطريق ، فتعقب كيرال أثر فاسكو داجام عام ١٥٠٠ ، واعقبه البوكرك عام ١٥٠٣ ، وصارت سفن البرتغال تحمل من الهند وهرمز وسيلان وملاقا وجافا وناكنك اكداس البضائع ، لاسيما بعد ان استولى العثمانيون على مصر عام ١٥١٧ .

وكانت تجارة الشرق يومئذ بيد العرب من عمان واليمن فنازاتهم البرتغال وسلبتها منهم ، وكان لها من تفرق كلتهم اكبر معين في التغلب عليهم على ان سيادة البرتغال على تجارة الشرق لم تدم طويلاً ؛ فقد عجزت عن اداة املاكها الشاسعة ، وكانت تدعي السيادة على افريقيا وجنوب آسيا والبرازيل ؛ ولم تسلك في المتاجرة سلوكاً يجربها الى اهل هذه البلاد انما اعتمدت في صلتها بهم على القوة فلما فقدت هذه القوة بانضمامها تحت لواء فلينب الثاني ملك اسبانيا عام ١٥٨٠ ، وكان مشغولاً في حرب مع الفرنسيين والاسكليز والهولنديين ، خسرت مركزها وتراجعت امام منافسة الهولنديين والاسكليز والفرنسيين .

لم يكثر الاسكليز في اول حركه الاكتشاف شأن يذكر لضعف قوتهم البحرية وعجزهم عن منافسة البرتغال والاسبان ، ولم ينزلوا الى عرض البحار الا في اواخر القرن السادس عشر اذ ارسلوا البعثات لاكتشاف اقاصي

العالم الجديد وسعوا للوصول الى متاجر الشرق عن طريق البحر الابيض الشمالي وطريق الفرات ، تجنباً من الاصطدام بالبرتغال ورغبة في المتاجرة مع اسواق الشرق الاوسط . فالفوا سنة ١٥٥٣ شركة من التجار والمغامرين اسكشاف الطريق الشمالي ، وتوجه السير هوك ولوبي الى البحار الشمالية للاكتشاف فاهلكته الثلوج على سواحل لابلند . طلى ان احدى سفنهم استطاعت ان تصل الى سواحل البحر الابيض الشمالي الداخلية وتوغل قائدها في روسية حتى وصل بلاط ايفان الرهيب فاتفق معه على تأسيس شركة انكليزية روسية للمتاجرة برأ بين روسية والاراضي الواقعة شرق وجنوب بحر قزوين . وقد استحصلت هذه الشركة اجازة للمتاجرة مع الشرق في عهد ماري تيودور ووافدت بعثة لاكتشاف الطرق الى اواسط آسية فاجتازت البعثة سواحل بحر قزوين حتى دخلت تركستان ووصلت الى بخارى ، وكان افرادها اول الانكليز الذين وطأت اقدامهم تلك الارض^(١) . واتصلت الشركة بفارس على عهد الملكة اليزابت التي ارسلت الهدايا الى الشاه ، وكان متردداً في قبول صداقة انكلترة حتى انه رد بعض كتب الملكة ، وايكن الانكليز واصلوا السعي للتقرب اليه وبيان فوائد تأسيس العلاقات التجارية معهم واستفادوا من عداثة اللاتراك فخرضوه على محاربتهم ووعدوه بالمساعدة وبذلك تمكنوا من تأسيس العلاقات التجارية مع ايران .

وكان الانكليز قد وجهوا انظارهم في اواخر القرن السادس عشر الى طريق الفرات للتوصل الى مغانم المتاجرة مع الهند فالفوا الشركة التركية التي

أرسلت بعثة لدرس هذا الطريق ، سرت عام ١٥٨٣ بطرابلس الشام و بغداد
والبصرة وهرمز ووصلت بباوه ، ولكن اعضاءها هلكوا في هذه الرحلة
الشاقة ولم يعد منهم غير واحد وصل انكابترة عام ١٥٩٠ يحمل كل ما تمكن
من جمعه من المعلومات . والمطربون ان رجال هذه البعثة كانوا اول من دخل
ارض الرافدين من الانكليز^(١) .

ثم حدث بعد ذلك ما جعل الانكليز يتركون هذه الطرق المحفوفة
بالخطار الى طريق رأس الرجاء الصالح بعدما انتصروا في واقعة الارمادا على
فيليب الثاني ملك اسبانيا والبرتغال سنة ١٥٨٨ . فالفوا في ٣١ كانون
الاول من سنة ١٦٠٠ شركة الهند الشرقية التي اتخذت سورات ، احده
مواني الهند ، مقراً لها ارسلت منه السفن الى سواحل الخليج - لاول
مرة - عام ١٦١٢ . وقد استحضت هذه الشركة « فرماناً » من الشاه
عباس الاول سنة ١٦١٥ امر به جميع موظفي المواني الفارسية بمساعدة
التجار الانكليز^(٢) . واوفدت سنة ١٦١٧ وفداً قابل الشاه واستحصل منه
امراً يجيز للشركة احتكار تجارة الحرير ، وكانت تريد بذلك القضاء على
التجارة البرتغالية في بلاد ايران اذ كانت الحرير أهم ما تتاجر به للمليكتين
مع البلاد الفارسية^(٣) .

على ان ذلك لم يكفل لانكابترة الاستيلاء على تجارة البلاد وكانت
لا بد من ان تصطدم بالبرتغاليين ، وكانوا يرقبون حركاتها ويسعون للايقاع

(١) Miles ص ٢٠٥ Curzon ج ٢ ص ٤١٦ - ٤١٧

(٢) Longrigg ص ١٠١ Curzon ج ٢ ص ٥٤٦ Miles ص ٢٠٨

(٣) Wilson ص ١٣٩

بها ، وكانت الشركات الهولندية والفرنسية التي تألفت اسوة بالشركات الانكليزية تزاخم تجارتها واتضع العراقيل في سبيلها .

وقد وقعت اول معركة بين الانكليز والبرتغاليين في الخليج بالقرب من جسك ، وكان النصر حليف الاول فاسسوا في جسك على اثر هذا الانتصار اول مركز لتجارتهم في الخليج (١) . وكانت سياستهم على تقيض سياسة البرتغاليين ؛ فقد كانوا يحسنون معاملة الاهلين و يتقربون الى الامراء فاستمالوا أهل البلاد . وقويت علاقتهم بالشاه حتى طلب معونتهم لطرد البرتغاليين من المواني الفارسية ، وكان ذلك في صالحهم فساعدوه ؛ فلما ابد البرتغاليون حلوا محلهم فيها . وعقد الشاه معهم سنة ١٦٢٢ اتفاقاً عهد فيه اليهم بامر حماية التجارة في الخليج فوضعوا بارجتين من بوارجهن في مياهه وكان ذلك اول حجر في بناء مركزهم السياسي وامتداد النفوذ البريطاني في الخليج (٢) .

على انهم جوبهوا بمنافسة الهولنديين عقيب تخلصهم من البرتغاليين ، وكان الهولنديون قد توسعت تجارتهم بعد ان نالوا استقلالهم من الاسبان و بعد ان شجهم انكسار فيليب الثاني في واقعة الارمادة على الوصول الى الهند ، قالوا جملة من الشركات التجارية توحدت سنة ١٦٠٢ فتألفت منها شركة الهند الشرقية الهولندية التي استطاعت في مدعى عشرين سنة بن

(١) ج ٢ ص ٧٠٠ من : Chesney, The Expedition For The Survey of The Rivers Euphrates and Tigris Curzon, ج ٢ ص ٤٨٨
 Longrigg, Miles, ١٠٢ ص ٢٠٩

(٢) Moperly ج ٢ ص ٤٥ Coke ص ٩

الاستحواذ على اكثر مرا كز التجارة البرتغالية في الشرق .
دخل هولنديون الخليج ، والنزع قائم بين الانكليز والبرتغاليين ،
فعاونا الاول واسسوا لهم مرا كز تجارية في بندر عباس واصفهان والبصرة ،
وكان طبيعياً ان ينفر الانكليز منهم لمنافستهم القوية ولتوسلهم مختلف
الوسائل امر قلة سير التجارة الانكليزية والقبض على الاسواق ، لاسيما بعد
ان شددوا على الشاه ، وهو مشغول بالدفاع عن بغداد وقد حاصرها
الأتراك ، فاجبروه على منحهم جزء من تجارة الحرير وكان الانكليز قد
احتكروها . ثم امتنعوا عن دفع الرسوم على بضائعهم في بندر عباس فتضررت
بذلك الشركة الانكليزية وكانت تتمتع وحدها بهذا الامتياز . ونوفى الشاه
عباس الاول سنة ١٦٢٩ فققدت انكلترة بموته عضداً قوياً . وكانت المادة
الجارية في البلاد الفارسية ان تتجدد العقود كلما تولى الامر شاه جديد فاغتم
الهولنديون هذه الفرصة لانتضاء على التجارة الانكليزية فرشوا رجال الحكومة
الفارسية ودفنوا اثماناً عالية للبضائع الفارسية وضايقوا الانكليز حتى اجبروهم
على نقل بضائعهم الى البصرة سنة ١٦٣٩ . وشجعهم هذا الانتصار فراحوا
يعملون بقوة لاحتكار اسواق فارس ، وركنوا الى استعمال العنف لاستحصال
الامتيازات من الحكومة وكانوا يستحصلونها قبلاً بالرشوة وتقديم الهدايا ،
فارسلوا في خريف سنة ١٦٤٥ قوة عسكرية انضمت الى اسطولهم في الخليج
واحتلت جزيرة قشم فاضطر الشاه ان يمنحهم ما أرادوا (١) .

وتعقب الهولنديون الانكليز الى البصرة فارسوا ثمانية من سفنهم أنزلت

بضائعها في المناوي وملأت بها الاسواق ، وكانت على وشك ان تقضي على التجارة الانكليزية فيها . وقد اشتدت هذه المنافسة حتى كانت من جملة العوامل في نشوب الحرب بين الدولتين بين سنتي ١٦٥٢ و ١٦٦٧ ، ولم تنته الا عندما اضطر الانكليز والهولنديون ان يتحدوا لمقاومة لويس الرابع عشر ملك فرنسا الذي عظم شأنه وحارب الهولنديين والاسبان وخرب أساطيلهم . وكان ما حدث للهولنديين على يد لويس الرابع عشر ضربة قاضية على تجارتهم في الشرق ففقدوا مركزهم الذي بنوه بالقوة بعد ان فقدوا تلك القوة ؛ واتضاء نفوذهم في الخليج فانسحبوا من البصرة عام ١٧٥٣ ومن بوشهر بعد ذلك بقليل وأغلقوا باب وكالتهم في بندرعباس سنة ١٧٥٩ ، فصفى الجو للانكليز .

اما فرنسا فقد بدأت منافستها للتجارة الانكليزية عام ١٦٢٦ لما ارسل ريشليو - وزيرها - ممثلاً من قبله الى البلاط الفارسي ليحول دون اتحاد الشاه مع اسبانية على الاتراك . ثم ارسل كوبرت - على عهد وزارته - وفداً الى الشاه عباس الثاني استحصل منه « فرماناً » أعفى البضائع الفرنسية من الضرائب والمكوس لمدة ثلاث سنوات وجعل لفرنسا من الحقوق والامتيازات ما لبقية الدول الاجنبية . وأسس الفرنسيون على اثر ذلك مركزين تجاريين في اصفهان وبندرعباس ، ولكنهم لم يهيروا الامر ما هو جدير به من الاهتمام فلم تتقدم تجارتهم ، فتركوا مركزهم في اصفهان سنة ١٧١٢ أثناء الفتح الافغاني . وفي خلال حرب السنين السبع وصلت الخليج أربع من سفنهم مخفية حقيقتها بالعلم الهولندي فهاجمت مركز التجارة الانكليزية في

بندر عباس ودمرته . وأسسوا لهم سنة ١٧٥٥ وكالة تجارية في البصرة ثم
قبوها الى قنصلية عام ١٧٦٥ . على ان المنافسة الحقيقية بين الدولتين لم تبدأ
الا على عهد الثورة الفرنسية وحروب نابليون .

وقد اتصل الانكليز بالعراق لأول مرة بمجيئهم الى البصرة بين سنتي
١٦٣٥ و ١٦٣٩ ، اذ اغتنموا فرصة ابتعاد البرتغاليين عنها ووجدوا من
التشجيع ما ساعدهم على اقامة مركز تجاري لهم فيها في سنة ١٦٤٣ ، ثم نقل
مركز بندر عباس تجارته اليها في سنة ١٦٤٥ ؛ لكن الهولنديين أنزلوا في
هذه السنة عينها كمية كبيرة من البضائع واشتدت منافستهم للتجارة
الانكليزية فاصيبت من جراء ذلك باضرار عظيمة ، وأوغروا عليهم صدر
الباشا - والي البصرة - فامر بسد مخزنيهم . على ان ذلك لم يمنع الانكليز
عن مواصلة ارسال سفنهم الى البصرة بين حين وآخر .

ولما زار الوالي علي باشا البصرة سنة ١٧٦٣ ورأى قبائل كعب تعيث
في ضواحيها وعدوكيل الشركة الانكليزية فيها بتخريب مصالحه اذا ساعده
سفن الشركة في اخضاع هذه القبائل ؛ فارسل الوكيل جملة من السفن
هاجمت العرب فانتصروا عليها وأسروا ثلاثة منها . فلما علمت بذلك حكومة
بومبي أرسلت سنة ١٧٦٦ اسطولاً من ست سفن لتأديب قبائل كعب ؛
وجاء محمود اغا - كهيبة عمر باشا - من بغداد ليضم قواه الى قوة الشركة ،
الا ان العرب انتصروا هذه المرة ايضاً فاحرقوا سفينتين من سفن الانكليز
وتسماً من سفن الاتراك وصدوا القوة التي هاجمتهم من البر .

وكان هذا الاشتراك في مقاومة القبائل العربية سبباً في تحسن العلاقات

بين الشركة والولاية ؛ فتوسعت مصالحها التجارية في العراق حتى اضطرت ان تعين لها وكيلاً فيها . (وعينت الوكيل رجلاً ارمينيا استبدلته - بعد ذلك - بانكليزي) . وكانت تجلب الى العراق اللواد المعدنية والمذسوجات الصوفية فتبيعها او تسقيدها بالحريز الفارسي وقد وجدت لها عوناً كبيراً لتسيير مصالحها في شخص سايان باشا الكبير بعد ان ساعده وكييلها في الحصول على منصب ولاية الثلاث آيالات ، وكان يقرضه ما يحتاج اليه من المال وبتولى امر تحويل المبالغ التي يرسلها الى استانبول . وكانت الشركة تستورد للباشا ما يحتاج اليه من الاسلحة والاعدات الحربية وتستقدم له المدرين العسكريين . وقد اصبغ لها من النفوذ في أواخر القرن الثامن عشر ما ساعدها على ان تحمل بريدها على التوافل الى سواحل البحر الابيض المتوسط .

اما علاقة الانكليز بسكان سواحل الخليج العربية فقد بدأت بنزوح البرتغاليين عن هذه السواحل . وقد كانت الشركة تتجنب على ما يظهر الاشتباك معهم ، فكان ذلك سبباً في رفضها اجابة الشاه الى طلبه عندما طلب اليها ان تساعده في مهاجمة عمان . على ان قبائل هذه السواحل قويت شوكتهم بعد تخلصهم من البرتغال فمروا سيرا مصالح الفرس والانكليز والهولنديين جميعاً اذ كانوا يهاجمون السفن التجارية حتى وقعت بيدهم عدة من سفن الشركة الانكليزية . غير ان هذه الشركة لم تتخذ أي اجراء ضد هذه القبائل بالرغم من وصول « التقارير » الى مديرتها تعلمه بتهددهم مصالحها

ووصول الاخبار من حاكم مدراس بمهاجرتهم سواحل ولايته . وقد استمرت الحال على هذا المنوال الى ان جاء نادر شاه فاهتم بامر هذه السواحل وأخضع مسقط والبحرين . وظهر احمد بن سعيد بعد زمن فخلص مسقط من قبضة الفرس وتولى حكمها . وخلفه ابنه السيد سلطان فوضعت في عهده علاقات بريطانية على أساس سياستها الجديدة كما سيرى القاري في الفصل التالي .

الفصل الثالث

بريطانيا تسيطر على الخليج في سبيل الهند

كانت سيادة اسبانيا والبرتغال على البحار قصيرة الامد فقد فقدت البرتغال قوتها البحرية بعد انضمامها الى اسبانية على عهد فيليب الثاني الذي أشغلته الحروب مع الانكليز والفرنسيين والهولنديين المطالبين باستقلالهم عن النمالية بشؤون التجارة . ولما أعلنت هولندا انفصالها عن اسبانية سنة ١٥٦٦ ، وكانت مرغمة بطبيعة وضمتها الاقتصادي والجغرافي ان تعتمد في حياتها على البحر فنشأت قوة فيه ، استطاعت في مدة وجيزة ان تنازل سفن الاسبان والبرتغال فتستولي عليها ، وان تضبط أكثر مما كزهم التجارية في الشرق وفي اميركا ، فكانت سيادة البحر مدة القرن السابع عشر .

على ان انكلترة نزلت الى الميدان على أثر انتصارها في واقعة الارمادا فكان نزاع عنيف بين الهولنديين والانكليز وبقيت نيران الحروب تستعر بين الدولتين الى ان أعلن لويس الرابع عشر الحرب على هولندا عام ١٦٧٢ فانقلب الحرب بين انكلترة وهولندا الى اتفاق على مقاومة لويس الرابع عشر ملك فرنسا العتيد . غير ان نجم هولندا أخذ في الافول بعد هذه الحروب فترك الميدان الى فرنسا والانكليز . وقد دام النزاع بين انكلترة وفرنسا مدة مائة عام وانتهى بفوز الانكليز الذين خرجوا منه وبقيضتهم سيادة البحار ، والهند والقسم الاعظم من أراضي العالم الجديد . وقد اعتاد الانكليز ان يصفوا الهند بالذرة اللامعة في التاج البريطاني

و بظهور الشعب الانكليزي انها قوام حياته وسر عظمة بريطانيا ، حتى أصبحت الهند مدار السياسة البريطانية وشغلها الشاغل .

وفي الواقع ان الهند كانت قوام الرأسمالية الانكليزية في مختلف أدوار نشوتها وهي العامل الاكبر في تفوقها وسطوتها ، ولا تزال السر في قوتها وجبروتها . فبنهب كنوز الهند خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر استطاع التجار الانكليز ان يجمعوا أكداس الذهب والفضة وغيرها من المواد فيقيموا بواسطتها الرأسمالية الصناعية التي نشأت في بريطانيا واتخذت من الهند سوقاً تعيش عليه ومورداً لما تحتاج اليه من المواد الخام . والهند في الوقت الحاضر ميدان لاستثمار رؤوس الاموال الانكليزية واستغلال العمال الى أبعد حد عرفته البشرية ، وسوق من أعظم أسواق العالم ، ومورد تستنزف منه الرأسمالية الانكليزية المال والمواد الخام (١) .

وعدا عن ان ٢٧١ مليون من سكان الهند ومليناً من الاميال المربعة من مساحتها تخضع للحكم البريطاني للباشر فان الامارات التي يحكمها الامراء لا تمتاز عن الولايات الخاضعة للحكم المباشر بسوى المظاهر ؛ فالسادة الامراء ليسوا سوى عميد للادارة البريطانية ، يعرفون حق المعرفة انهم مدينون لها بمرکزهم وبما ينعمون به مما يتزونه من الشعب الهندي من الاموال والرأسمالية الانكليزية حريصة كل الحرص على الاحتفاظ بهذه الحشاشة من بقايا العصور الاقطاعية كسلاح من أسلحة الرجعية ، تقاوم به الطبقة الوسطى الناشئة والسواد الاعظم من الشعب الهندي . وتؤلف مساحة الامارات ٣٩ في المائة من مجموع

مساحة الهند و ٢٣ في المائة من عدد سكانها (٨١ مليون نسمة) .
وقد توسل الانكليز منذ ان تأسست شركة الهند الشرقية عام ١٦٠٠
بكل الوسائل لايتزاز الثروة من هذه المملكة الغنية التي تعادل في المساحة
نصف قارة أوروبا ، وشجعهم على ذلك انحطاط مستوى العيش فيها والجهل
الطابق على سكانها ، حتى بلغت أرباح هذه الشركة ٢٥٠ في المائة في السنة ،
عدا عن ما كان ينهبه موظفوها بمختلف الطرق والاساليب وما ينالونه من
الهدايا من امراء الهند لقاء بعض المساعدات التي كانوا يسدون بها لهم . فقد نال
كليف المستعمر المعروف وحده سنة ١٧٥٧ مبالغ ٢٠٠٦٠٠٠ ليرة انكليزية
وأرضاً واراداتها السنوية ٣٠٦٠٠٠ ليرة انكليزية جزاء مساعدته أحسد
للتنازعين على امارة البنغال . وبلغ مجموع قيمة الهدايا المقدمة للشركة بين سنتي
١٧٥٧ و ١٧٦٦ ستة ملايين ليرة انكليزية . وكان الانكليز بين سنتي ١٧٦٩
و ١٧٧٠ يجمعون كل ما في المملكة من الرز وبيعونه للسكان بأسعار باهظة
فأدى ذلك الى حدوث مجاعات هلك فيها الملايين من السكان ، وبالغوا في
ارهاق المزارعين في البنغال حتى بلغت واردات الشركة من الزراعة وحدها
(١٣٠٦) مليون ليرة انكليزية سنة ١٨٢٢ - ١٨٢٣ ، و (١٥٠٧) سنة
١٨٥٧ - ١٨٥٨ . وكان مجموع ما يستحصل من البنغال في عهد الحكم
المغولي قبيل مجي الانكليز لا يتجاوز المليون ليرة انكليزية . وقد ذهبت
الشركة في استنزاف المال بواسطة المتاجرة الى أبعد حد ، حتى ان مجموع قيمة
ما استورد الى الهند بلغ بين سنتي ١٧٦٦ - ١٧٦٨ (٦٢٤٠٣٧٥)
ليرة انكليزية بينما بلغ مجموع ما صدر منها الى انكلترا ٥١٣١١٢٥٠ ليرة

انكليزية ، عدا عن المبالغ الطائلة التي كان يجمعها المحاربون وموظفوا الشركة ويحملونها معهم الى بريطانيا عند عودتهم اليها . وقد فعلت الشركة في بهار واوديسا وميسور وتنجور وراجبوتانا وبرما السفلى والبنجاب والسند وغيرها من المقاطعات التي ضمتها لأملها مثل ما فعلت في البنغال بين سنتي (١٨١٤ - ١٨٥٦) .

وقد قال ما كولي ، الكاتب الانكليزي المشهور ، في كتابه عن اللورد كليف يصف استنزاف الاموال من الهند على عهد الشركة المذكورة : « لقد أكرهوا (عمال الشركة) الاهلين على الشراء بأثمان باهظة والبيع بسعر زهيد . وشكوا بحمايتهم بعض الاهلين من صنائهم فطافوا البلاد يعيشون فيها فساداً ويقذفون الرعب في نفوس الناس أينما حلوا . وكان خادم كل أجير بريطاني مؤيداً بكل ما سيده من سلطان ، وكان سيده مسنوداً بكل ما للشركة من جبروت . هكذا جمعوا الاموال الطائلة في كليكته باسرع وقت وأنزلوا ثلاثين مليون نسمة (من سكان البلاد) الى حضيض الهلاك . ومع ان الاهلين كانوا قد اعتادوا العيش في ظل الطغاة الا انهم ما سبق لهم قط ان شهدوا مثل هذا العسف » .

كانت هذه الاموال الطائلة للبتزة من الشعب الهندي غذاءاً للرأسمالية الصناعية التي نشأت في انكلترا في القرن الثامن عشر . حتى اشتد ساعدها بعد منتصف هذا القرن فالتحت تنافس شركة الهند الشرقية فحمت البرلمان الانكليزي على تشريع القوانين التي جعلت أسهم الشركة تحت إشرافه وأرغمتها على دفع ضريبة سنوية الى خزينة الدولة ، وعلى تصدير

المصنوعات التي تنتجها العامل الانكليزية الى الهند ؛ وقد عين البرلمان لجنة للاشراف على ادارة أملاكها ، وقرر فتح أبواب الهند لجميع الرأسماليين من الانكليز . وبذلك دخلت الرأسمالية الانكليزية في دورها الثاني اذ أصبحت الهند مصدراً للمواد الخام وسوقاً للبضائع الانكليزية . وكان من أول مظاهر هذا الدور القضاء على الصناعات الوطنية في الهند لاسيما صناعة النسيج ، لينفصح المجال للمنسوجات والبضائع الانكليزية ان تنتشر الى أقصى الحدود . وبعد ان قضى الانكليز على صناعة النسيج الوطنية توسع نطاق انتشار منسوجاتهم في الهند فبلغ مقدار الغزل المصدر اليها ٥،٢٠٠ ضعف بين سنتي ١٨١٨ و ١٨٣٦ وزاد مقدار الشاس من مليون يارد في سنة ١٨٣٧ الى ٦٤ مليون يارد في سنة ١٨٣٧^(١) .

على ان قابلية الهند لشراء المنسوجات البريطانية أخذت تنضائل لنضوب معين الثروة فيها فاضطر الرأسماليون الى التحري عن علاج ينش هذا الجسم الذي طاشوا على امتصاص دمه . وكان مجال استثمار رؤوس الاموال في انكلترة قد ضاق وأخذت نسبة الارباح بالنزول ، فعمدوا الى استثمارها في مشاريع زراعة القطن وغيرها . وكانت صناعة الحديد في انكلترة قد نمت وأصبحت بحاجة الى سوق لتصرف منتوجاتها فرأى أصحابها في مد السكك الحديدية وانشاء مشاريع الري وتأسيس مراكز البرق والبريد خير

(١) Beauchamp ص ٢٩ ("The British Rule in India." By Marx.)

منفذ لها ، لاسيما وقد أضحى الرأسمالية الانكليزية بحاجة ماسة الى ضمان طرق
المواصلات والمحابر لتسهيل استثمار البلاد وتثبيت وضمان السيطرة فيها .
فدخلت الرأسمالية بذلك دورها الثالث ، دور استثمار رؤوس الاموال
واستغلال الشعب في ميادين العمل ، علاوة على استنزاف ينابيع الثروة
في البلاد .

وكان من أهم مظاهر هذا الدور سوق الرأسماليين الحكومة البريطانية
الى تبديل الوضع السياسي في البلاد والقبض على زمام الحكم فيها مباشرة^(١) .
وقد صحب هذا الدور أيضاً ازدياد الارهاق واشتداد البطش والعسف . فقد
حدث في مستهله ان تمردت بعض كتائب الجيش الهندي واندامت نيران
الثورة في البلاد فبطش الانكليز بالهنود بطشاً لم يشهد التاريخ له مثيلاً وكانت
حركة العمال وطلبهم تحديد ساعات العمل قد نشطت في انكلترة في النصف
الثاني من القرن التاسع عشر فرأى الرأسماليون في العامل والفلاح الهندي
خير وسيلة لاستنزاف أعظم مقدار من الربح لرؤوس أموالهم اذ كان باستطاعتهم
ان يشغلوا الرجال والنساء والاولاد في الهند دون قيد أو شرط باجور أدنى
مما كانوا يتصورون . لقد ارتكب الرأسماليون في ارهاق الفلاح والعامل
الهندي من المظالم ما يفوق حد التصور وما كان عليهم من رقيب . فكانوا
يسترجعون قسماً كبيراً من الاجور الزهيدة التي لم تكن تكفي لسد رمق
الفلاح والعامل كضرامات وكانوا يفرضونها لأقل زلة . وبالرغم من انهم

كانوا يدفعون اجور العمال مشاهرة فقد اعتادوا تأجيل دفعها الى اقتضاء القسم الاعظم من الشهر الآخر فينتقلون بذلك كاهل العامل والزارع بالديون ، وقد دات التحريات على ان الفلاح كان يستقرض من مستخدميه بفأض قدره ٢٢٥ في المائة في أحمد آباد و ١٥٠ في المائة في الولايات الوسطى و ٣٢٥ في المائة في البنغال ، وكان فأض هذه الديون كثيراً ما يتراكم فيجمل من العامل أو الفلاح عبداً لا سبيل له الى الخلاص^(١) وقد تبين من درس أحوال العمال والفلاحين ان وكلاء الاستخدام في أحمد آباد وفي غيرها كانوا يتبعون طريقة العقود في الاستخدام فيستأجرون الولد من أبيه لمدة سنتين أو أكثر بأجرة لا تزيد على خمس وأربعين شلماً في السنة . وكان العمال من رجال ونساء وأولاد يعملون من الساعة السابعة ونصف صباحاً الى الساعة السابعة مساءً دون توقف . هذا في العامل القريبة من رقابة الحكومة ناهيك في غيرها ، حتى ان بعض النساء كن يلدن في العامل أثناء العمل . وكانت النساء العاملات في مقاطعة بومي ترغن على ترك أطفالهن خارج العامل فكان ينومهم بالاميون ، وقد أظهرت التحقيقات سنة ١٩٢٢ ان ٩٨ في المائة من أطفال العاملات في بومي كانوا يجرعون الافيون لهذا الغرض^(٢) . وكانت ساعات العمل تتراوح في أحسن الحالات بين العشر والاربع عشرة ساعة طول مدة الاسبوع بلا توقف . ومع ان الاجور في الهند تختلف باختلاف الجهات ونوع العمل ، فهي من أوطأ الاجور في العالم بحيث تصل

(١) Beauchamp ص ١٠٤

(٢) Beauchamp ص ١٠٧

الى العشرة فلوس في اليوم . وقد وجد ان الاولاد في كثير من المشاريع الزراعية يستخدمون منذ السنة الرابعة من سنهم^(١) . كان الرأسمالي الانكليزي في الهند يستطيع ان يرتكب كل هذه الفضائح على مشهد من المدينة الاوربية فتسنى له بذلك ان يستنزف ربحاً بلغ ٣٠٠ في المائة من قيمة الاسهم^(٢) .

على ان ابتزاز الرأسماليين من الانكليز أموال الهند لم يفته عند هذا الحد ، فقد كانت الرأسمالية الانكليزية تمد السكك الحديدية لتسهيل الاستغلال وأحكام الاستعباد على حساب الشعب الهندي الذي لم يتح له السفر فيها الا في أدنى الدرجات وكان القسم الاعظم من المبالغ المخصصة لاد السكك وغير ذلك من المشاريع يختلس في أغلب الاحيان حتى تباع نفقات هذه المشاريع أضمافاً التخمينات ، من ذلك ان الميل الواحد من الخطوط الحديدية كلف ١٨٦٠٠٠ ليرة انكليزية وكانت تخمينات نفقاته ٨٠٠٠ . وبلغت نفقات الميل الواحد في بعض الاحيات ٣٠٦٠٠٠ ليرة انكليزية . وهكذا استطاعت الرأسمالية الانكليزية ان تبتز من الشعب الهندي مبالغ ٢٢٥ مليون ليرة انكليزية فتمد السكك الحديدية للأغراض الحربية والاستثمارية المحضة . وقد بلغت خسائر هذه السكك حتى سنة ١٩٠٠ (٤٠) مليون ليرة انكليزية تحملها الشعب الهندي^(٣) .

وقد أعدت الحكومة البريطانية على نفقة الهنود وسائل الدفاع

(١) Beauchamp ص ١٠٧

(٢) ص ٤٩ من : The Colonial Policy of British Imperialism.

By Ralph Fox

(٣) Beauchamp ص ٤٤ - ٥٥

عن مصالح الرأسمالية في الشرق . فكان الجيش المستخدم لاختضاع البلاد واستعمار الاقطار المجاورة يستوفي نفقاته من خزينة الهند . وكانت نفقات الجيش البريطاني في الهند تزيد في بعض الاحيان - بسبب سياسة التبذير - على نفقات جميع القوى الانكليزية التي عداها . وقد أدى اتباع سياسة التبذير في الصرف على الجيش وعلى وسائل الدفاع من سكك وغيرها والاتفاق على الحروب الاستعمارية الى ظهور المعجز باستمرار في ميزانية الهند والى تراكم الديون - التي كانت تستقرض من الرأسماليين الانكليز بفوائض عالية - حتى بلغت سنة ١٩٢٩ - ١٩٣٠ (٧٢٨) مليون ليرة انكليزية . وقد بلغت نفقات قوة الدفاع سنة ١٩٣٣ - ١٩٣٤ (٣٧٦٥٠٠٠٠٠٠) ليرة انكليزية أي ما يعادل ٤٠ في المائة من اعتمادات الميزانية العامة . وبلغت هذه النفقات مع نفقات السجون والشرطة في نفس السنة (٥٦١١٩) مليون ليرة انكليزية أو ما يعادل (٣٢٦٥١) في المائة من اعتمادات الميزانية بينما كانت نفقات المعارف (٦٠٤٢) في المائة فقط^(١) . كل ذلك كان لحساب الرأسمالي الانكليزي الذي لا يستفيد منها لضمان مصالحه فحسب وانما يستفيد كذلك من تراكم الديون على الخزينة أيضاً . حتى ان خزينة الهند تدفع سنوياً ٣٥ مليون ليرة انكليزية لتسديد فائض هذه الديون واملاوات اجازات الموظفين الانكليز ونفقات سفرهم ورواتب المتقاعدين منهم وغير ذلك من النفقات المخصصة لمصلحة الاستعمار والمستعمرين^(٢) .

ويبلغ عدد الشركات الاجنبية التي تستثمر اموالها في الهند ٦٣٤ شركة برأس مال يقدر بمليارين ونصف مليار من الدولارات ، وعدد الشركات المؤلفة في الهند ٥١٩٤ شركة برأس مال قدره مليار دولار ، وينوف مقدار رؤوس الاموال المستثمرة خارج هذه الشركات على المليارين من الدولارات ، ومقدار الديون العامة على ثلاث مليارات ونصف مليار دولار . وتبيع المصانع البريطانية من مصنوعات في الهند ما تبلغ قيمته نصف مليار دولار في السنة ، وتستورد من الهند من المواد الخام ما تبلغ قيمته خمسي المليار من الدولارات . وتصرف مصانع النسيج الانكليزية في الهند من المنسوجات ما تساوي قيمته ٢٢٥ مليون دولار في السنة . وتبيع مصانع الحديد والفولاذ ومعامل السيارات في الهند من مصنوعات ما تبلغ قيمته مائة مليون دولار . وتصدر الهند الى انكلترة من الشاي ما تبلغ قيمته ١٢٠ مليون دولار ، ويستخرج من مناجمها ما يقارب العشرين مليون طن من الفحم في السنة ، ومن مناجم الحديد مقداراً غير يسير . وفي الهند مقادير كبيرة لمختلف المعادن وموارد جسيمة لم تستثمر بعد (١) .

من هذا يتبين للقاري ان علاقة الرأسمالية البريطانية بالهند علاقة حياة وممات ، فالرأسمالية الانكليزية ، لاسيما في الوقت الحاضر بعد ان اشتدت المنافسة بينها وبين الرأسمالية في اميركا واليابان ، لم تعد تستطيع الحياة من دون الهند . على ان ادراك الرأسماليين أهمية الهند لحياتهم ليست بذت اليوم ، فقد

(١) ص ٢٩١ — ٢٩٢ من : Imperialism, and World Politics, By :

Parker Thomas Moon,

أدركوها منذ فجر حياتهم لاسيما بعد ان خسروا مستعمراتهم في اميركا الشمالية التي انفصلت عن جسم الامبراطورية والفت من نفسها الولايات المتحدة الاميركية ، وبعدها تبين لهم ان مستعمراتهم المقطونة من قبل الاوربيين في اميركا وافريقيا واستراليا لا يمكن ان تستغل من قبلهم على الوجه المطلوب وانها لابد ان تحذو حذو المستعمرة الاميركية الكبرى فتتفصل عن جسم الامبراطورية . كما ان مجال الاستغلال في هذه المستعمرات ضيق جداً بالنسبة للهند ذات الخيرات الوفيرة التي يقطنها ٣٥٠ مليون نسمة من البشر الصالحين للعمل بازهد الاجور . لهذا كله اصبحت الهند مدار السياسة الامبراطورية منذ قبض الرأسماليون على زمام الحكم في بريطانيا بعد الثورة الصناعية .

كان بطرس الاكبر ، مؤسس روسية القيصرية ، أول من فكر بجهد في فتح الهند وقدّر قيمتها من رجال اوربا الحديثة . وقد هاجم بلاد ايران أثناء الفتح الافغاني بقصد الوصول اليها فاخفق . على ان التفكير في أهميتها ولزوم الاستيلاء عليها لازمه الى آخر حياته ، فاوصى خلفاءه بتحقيق أمنيته هذه اذ ورد في الفقرة التاسعة من وصيته لهم :

« تقدموا ما استطعتم من القسطنطينية والهند ، فان من »

« يحكمهما يكون سيد العالم من غير منازع . أشهروا من أجل »

« ذلك ، الحروب المتواصلة على تركية وايران وأنشأوا »

« المراسي على البحر الاسود واستولوا على قطع من »

« الارض فيه ، وفي البلطيق ايضاً ، لأنها لازمة لتحقيق »
 « خطتنا . واذا ما سرى الانحلال في بلاد ايران فتوغلوا »
 « فيها حتى تبلغوا سواحل الخليج فتعيدوا الحياة الى »
 « الطرق التجارية القديمة مع الشرق الادنى ان »
 « استطعتم ، ثم واصلوا السير الى الهند محط كنوز العالم . »
 « فاذا ما وصلنا اليها فلا تعود لنا حاجة بذهب انكلترة^(١) »

ولم تكن هذه الكلمات لتثير مخاوف الانكليز لو لم يأت نابليون ويعمل
 مجد لمهاجمة الهند ويضع الخطط الحربية لذلك بالاشتراك مع بواص قيصر
 الروس ومع الاسكندر الاول من بعده .

ومع ان رغبة نابليون في الاستيلاء على الهند تولدت فيه - على
 ما يظن - منذ أول نشأته لما طالع كتب مشاهير التاريخ القديم مثل
 الاسكندر الكبير ورأى ان الشرق كان قبلة آمالهم وقوام عظمتهم وصار
 يحلم ان يكون له من الشهرة مثل ما كان لهم ، الا ان الدوافع الفعلية لاهتمامه
 في أمر مهاجمة الهند ترجع الى رغبته في ان يمتاز انكلترة في الشرق بعد ان
 عجز عن مغازلتها في اوروبا بسبب افتقاره الى اسطول بحري يستطيع ان يقابل
 به الاسطول الانكليزي ، وكان يعتقد ان في انتزاع الهند من انكلترة
 او قطع طرق اتصالاتها بها ضربة قاضية على بريطانيا . فعمله هذا الاعتقاد على
 مهاجمة مصر والاستيلاء عليها وايضاً الرسل منها الى رجال الشرق بخطب

(١) Sykes ج ٢ ص ٢٥٤ و ص ٦٢ من كتاب :

Hamilton, Angus, Problems of The Middle East. (London: 1909)

ودعم وبهبي أفكارهم لتقديمه . ومن بين رسائله الى بعض الامراء في الشرق رسالتان ، إحداهما الى إمام مسقط والآخرى الى « تيبو صاحب » أحد امراء الهند النافقين على الانكليز أرسلها اليه داخل كتابه الى الإمام . وهذا نصهما^(١) :

« القاهرة في ٢٥ كانون الثاني سنة ١٧٩٩ .

« الى إمام مسقط .

« أكتب اليك لاعلمك بوصول الجيش الفرنسي الى

« مصر . وبما انك كنت على الدوام حافظاً لولائنا »

« فكن واثقاً من رغبتنا في حماية السفن التجارية التي »

« ترسلها الى السويس . الرجاء ابصال الكتاب المرسل »

« بطي كتابك هذا الى تيبو صاحب في أول فرصة . »

الامضاء : « بونابرت »

« الى تيبو صاحب

« لا بد وقد بانك نبأ وصولي الى سواحل البحر الاحمر »

« على رأس جيش جرار لا يفلب . اود ان اسمع اخبار »

« الوضع السياسي الذي انت فيه وارغب في ان »

« ترسل الى السويس رجالاً ذوي جدارة تثق بهم »

« للمداولة معهم . »

الامضاء : « بونابرت »

وقاوض نابليون القيصر بولص في الوقت عينه فاتفقا سنة ١٨٠٠ على ان يسير كل منهما الجيوش الى باكو لتعبر بحر قزوين الى استراياد فالشاهد فهيرات ، لكن هذه الخطة اهلكت على اثر اغتيال القيصر ومغادرة نابليون مصر على جناح السرعة لامور استدعت حضوره في باريس (١) .

على ان نابليون استمر في مساعاه لتحقيق مقاصده في الشرق ، وكانت خطته الثانية ان يمتد على فرنسا وحدها ، ويستعين بالتقنين من امرء الهند ، ويسلك طريق الفرات . ورأى ان يرسل في الخفاء ، قوة كافية تنزل على مقربة من خليج الاسكندرونة حيث يكون في انتظارها أحد الثقات من رجاله ليقودها الى مرعش ، وهي قرية اختارها ليستفيد من الغابات المحيطة بها في بناء السفن لتحمل جنوده في الفرات الى البصرة . وكان ينوي تحصين البصرة واتخاذها مقراً لجيشه وتدبيره السياسية والعسكرية (٢) .

وقد قاوض الاتراك سراً للاذن بمرور جيشه (٣) . وكان وكيل فرنسا السياسي يسمي لهيئة الازهان في الشرق الاوسط ويفاوض الشاه بشأن هذه الحملة . ولم يصغ الشاه لأقوال فرنسا الا لما اقترحت سنة ١٨٠٤ ان تنفق معه ضد روسية ، ولكنه بقي متردداً بين قبول اقتراحها والاتفاق مع الانكليز وكانوا يفأوضونه ايضاً . واخيراً وافق على الاتفاق مع فرنسا لما جاء الكولونيل روميو ، وكانت الحرب قد نشبت بين ايران وروسية ، يحمل اليه مسودة

(١) Sykes ج ٢ ص ١٨٧ - ٢٩٨ و Curzon ج ٢ ص ١٨٧

(٢) Chesney ج ١ ص ٥٢٦

(٣) Sykes ج ٢ ص ٤٠٢

اتفاقية تعهد نابليون فيها ان يعينه على استرجاع جورجية ويجهزه بالثؤون
واللعدات الحربية ، وكان نابليون يعرف مدى التأثير السيئ في نفس الشاه
لاستيلاء الروس على جورجية فاراد ان يستفيد من ذلك ويستعين بالشاه
لمهاجمة الهند .

وأرسل الشاه المرزا رضا ممثلاً من قبله الى البلاد الفرنسية فامضى معاهدة
فنكنستين (Finkenstein) في مايس سنة ١٨٠٧ ووافق الشاه بموجبها
على ضم قواه الى جيوش فرنسا في فتح الهند . وقد وصلت بعد امضائها
ببضعة أشهر بعثة الجنرال غاردان (Gardanne) - وفيها سبعون ضابطاً -
لتدريب الجيش الفارسي على الاساليب العسكرية الاوربية . والمظنون ان
نابليون اراد ان يستفيد مما تدربه من الجند في حملته على الهند^(١) .

وعين نابليون احد قواده حاكماً على للممتلكات الفرنسية في الشرق
ليترقب حركات الانكليز في الهند ويقف على صلاتهم بالامراء ويسمى
لهيئة الاذهان لمقدم الحملة ويرسل التقارير عن الحالة ويقدر ما تحتاج اليه
الحملة من المعدات والثؤون . وقد أرسل هذا ممثلاً من قبله الى سلطان مسقط
ليتناول معه ويحمله على الاتفاق مع فرنسا ، غير ان السلطان أبى ان يباحثه
في غير ما يتعلق بالشؤون التجارية خوفاً من الانكليز وقد سبق ان تعهد
لم بان لا يتصل بالفرنسيين^(٢) .

ولما عقد الصالح بين نابليون والقيصر الاسكندر الاول استبدل نابليون

(١) Sykes ج ٢ ص ٤٠١ - ٤٠٢

(٢) Miles ص ٣٠٠ - ٣٠١

هذه الخطة باخرى . وقد اضمنت « معاهدة تلت » خلاصتها وهي ان :

« تسير فرسة وروسية مشتركين ، جيشاً مكوناً من »

« سبعمين الف محارب الى ضفاف السند ، على ان تسمح »

« النمسة بمرور الجيش الفرنسي من بلادها وتساوده على »

« قطع الدانوب الى البحر الاسود . وان يتجمع الجيش »

« الروسي المؤلف من خمسة وعشرين الفاً من الجنود »

« النظامية وعشرة آلاف من القوزاق في استراخان ، »

« ومنها يقطع بحر قزوين الى استراباد حيث يبقى ريثما »

« يصل الجيش الفرنسي اليها . »

« وان تكون استراباد مقراً للجيش ومخزناً للميرة والمؤون »

« ومركزاً للمواصلات بين فرسة والهند وروسية . »

« وان تنقل الجنود الفرنسية المسكونة من خمسة وثلاثين »

« الفاً على نهر الدانوب في سفن توصلها الى البحر »

« الاسود . وتتولى روسية نقلها عبر هذا البحر وبحر »

« آروف . »

« وان يسير الجيشان بعد ذلك من استراباد الى المشهد »

« فهيرات فغزته ققندهار حتى يبلغا السند . »

وقد قدرت مدة انتقال الجيش الفرنسي من الدانوب الى السند بمائة

وتسعة عشر يوماً^(١) .

غير ان الظروف لم تمكن نابليون من تحقيق هذه الخطط الحربية اذ هوى من ذرى مجده سريعاً وانتهى الامر به الى سنت هيلانه القاحلة . لكن هذه الخطط أصبحت من بعده أساس السياسة البريطانية لحماية امبراطوريتها الهندية بعد ان أشار فيها نابليون الى جميع الجهات التي يتوقع ان تهاجم الهند منها فنبه الانكليز الى لزوم القبض عليها . وهذه الطرق ثلاثة : طريق البحر الاحمر وطريق هيرات وطريق الفرات والخليج الفارسي . اما الاول فقد سيطرت عليه بريطانيا بسيطرتها على مالطة وقبرص ومصر والسودان وعدت والنواحي التسع المحمية وسواحل البلاد العربية والجزر القريبة منها .

وسدت طريق هيرات بضم بلوجستان الى الهند وتوطيد نفوذها في الافغان والتبت والنصف الجنوبي من بلاد فارس .

اما طريق الفرات والخليج الفارسي فقد كان السبب في اهتمام بريطانيا بطرق المواصلات بين البحر الابيض المتوسط والخليج الفارسي وفي سعيها لتوطيد نفوذها في فلسطين وفي جزيرة العرب والعراق وسواحل الخليج .

وقد أعقب مساعي نابليون لمهاجمة الهند استبدال بريطانيا سياستها في الشرق الاوسط وفي الخليج الفارسي والعراق ، وكانت تنطوي على حماية مصالحها التجارية فقط ، بسياسة استعمارية فتاكة استهدفت السيطرة على الشرق الادنى والاطلس ومد جميع السبل بوجه كل من تحدته نفسه بمهاجمة الهند . وكان لهذا التبدل مظاهر شتى تقتصر على ذكر ما يتعلق ببحثنا منها : كان من أول مظاهر هذا التبدل مقاومة بريطانيا النفوذ الفرنسي في

بلاد فارس والخليج . اما في بلاد فارس فقد اوفدت الكابتن جون مالكون سنة ١٨٠٥ ، على اثر سماعها بنوايا نابليون والقيصر بولص ، ليحمل الشاه على الامتناع عن الاتفاق مع الفرنسيين وعلى تشجيع التجارة الانكليزية والهندية ومقاومة شاه الافغان . وقد نجح في عقد اتفاقية تمهد فيها الشاه بان يبعد كل من يقيم في ايران من الفرنسيين (١) .

غير ان الفرنسيين استطاعوا بالرغم من مساعي بريطانية ان يتقربوا من الشاه ويتفقوا معه (٢) . واما ساعدهم في ذلك بعد المسافة بين كلكتة ولندن وتباطؤ الوزارة الانكليزية في تقرير السياسة المراد اتباعها في ايران . على ان نفوذ فرنسة تضائل بعد عقد معاهدة تلمت التي نكث فيها نابليون بوعوده للشاه بشأن استرجاع جورجية . فاغتنمت انكلترة هذه الفرصة واوفدت الكابتن مالكون مرة اخرى سنة ١٨٠٨ . فلما لم ينجح في مفاوضاته أرسلت السير هارفورد جونسن الذي بين للشاه لزوم الاتفاق ضد روسية واستعداد انكلترة لأن تدفع له مئة وسبعين الف « تومان » في السنة خلال المدة التي تكون فيها ايران معادية لروسية ، فرضى الشاه بذلك ؛ وكان من أول نتائج هذا الاتفاق اخراج المدربين الفرنسيين من الجيش الفارسي والاستعاضة عنهم بالمدربين الانكليز (٣) .

وفي عام ١٨١٠ أوفدت انكلترة الكابتن مالكون للمرة الثالثة فعقد معاهدة جديدة تمهد الشاه فيها ان يبطل جميع المعاهدات المضرة بمصالح

(١) Sykes ج ٢ ص ٤٠٤ — ٤٠٥

(٢) Sykes ج ٢ ص ٤٠١ — ٤٠٣

(٣) Sykes ج ٢ ص ٤٠٤ — ٤٠٥

انكلترة المعقودة بينه وبين الدول الاوربية الاخرى وان لا يسمح لجيش اجنبي معاد لبريطانية بالمرور من بلاده وان يحمل امراء خوارزم وبنجاري وسمرقند على مقاومة أي جيش يمر ببلادهم بقصد مهاجمة الهند . وتعهد الفريقان ان يتعاونوا في رد أي تعد خارجي ، واشترطت انكلترة ان يكون لها رأي في حل مشاكل الحدود بين روسية ويران وتعهدت مقابل ذلك ان تزيد المنحة السنوية الى مئتي الف تومان في السنة على ان يوقف دفعها اذا اشتركت فارس في حرب ضدها وان يشرف الممثل البريطاني على صرف هذه المنحة (١) .

وطالبت حكومة الهند ، عند سماعها بمراسلة نابليون سلطان مسقط ، الى وكيلها في بوشهر ان يزور مسقط و يفاوض السيد سلطان بشأن عقد اتفاق سياسي لمقاومة النفوذ الفرنسي . وقد وقع المرزا محمد - وكيل حكومة الهند يومئذ - و سلطان مسقط اتفاقاً في هذا الشأن كان أول اتفاق عقده الانكليز مع مسقط ، تضمن سبعة بنود تعهد فيها السلطان ان يبعد الفرنسيين عن بلاده ويسد موانيه بوجه سفنهم مدة الحرب بينهم وبين انكلترة ، وان يستعين بمشورة موظف انكليزي يقيم في مسقط .

ولما سمع حاكم الهند بتجدد العلاقات بين السلطان والفرنسيين أوفد الكابتن مالسكولن اليه فاجتمع به في هرمز في اوائل سنة ١٨٠٠ واتضمن حديثه معه تهديداً بفاق مواني الهند من سورات الى كلكته في وجه سفن مسقط ومقاومة تجارتها ، فلم يتردد السلطان بعد هذا في التوقيع على اتفاقية جديدة رضى فيها باقامة وكالة سياسية للانكليز في مسقط (٢) .

وأخذت بريطانية تسعى بجد لبدست سيطرتها على سواحل الخليج وتذرع بانفه الحوادث لسوق الحملات البحرية على القبائل فيها ، وأنزلت في عام ١٨٠٥ ، أول ضرباتها بقبائل الجواسم ، وكانت أشد قبائل السواحل المهادنة شكيمة ؛ وعقدت معهم المعاهدات التي سلبت بها سيادتهم شيئاً فشيئاً . وكانت اولى هذه الاتفاقيات اتفاقية سنة ١٨٠٦ التي اشترطت فيها عليهم احترام راية الشركة وعدم التعرض لسفنها والتأمين لها ، غير ان القبائل لم تلتزم بنصوصها واستمرت على سيرتها الاولى فهاجمت البحرين وطردت منها جنود عمان ، وكانت قد احتلتها كما مر بنا في الفصل السابق ، فسأقت عليهم الشركة حملة اخرى دمرت (رأس الخيمة) وأحرقت ما يزيد على المئة من سفنهم وأجبرتهم على عقد اتفاقية سنة ١٨٢٠ ، وفيها خطت السواحل المهادنة الخطوة الاولى في الدخول تحت الحماية البريطانية ؛ وعقدت في الوقت عينه اتفاقية اخرى شبيهة بهذه الاتفاقية مع البحرين .

ولم تقف بريطانية في جهودها عند هذا الحد فقد أرسلت الخبراء البحرين لمسح سواحل الخليج ودرس المراكز المهمة فيه . وكان من أشهر هؤلاء الخبراء ، الليوتننت ولستيد من رجال اسطول المحيط الهندي ، وقد وصل مسقط في شباط سنة ١٨٣٥ فدرس السواحل ووصفها أحسن وصف وأخرج لها أول خارطة عصرية (١) .

واستبدلت بريطانية تأسيساتها التجارية في الخليج بتأسيسات سياسية مجارة للأحوال الحادثة ، فقلبت وكالاتها التجارية في بوشهر الى وكالة

(١) Wilson من ٢٧٧ - ٢٨٤ و Miles من ٢٢٧ - ٢٣٨

سياسية عام ١٨١٢ وضعت مثل ذلك في بقية مراكزها في الخليج عام ١٨٢٢ . وكانت وزارة الخارجية حتى بداية القرن التاسع عشر لا تطمع على غير النزر اليسير مما يجري في إيران والخليج والبلدان المحيطة به ولكن التقارير السهبة عن كل ما يحدث في هذه الجهات أخذت تتوالى على وزارة الخارجية البريطانية حتى اضطرت الحكومة الانكليزية ان تؤسس فرعاً خاصاً بشؤون هذه الجهات استخدمت فيه طائفة كبيرة من الخبراء ، وكانت حكومة مقاطعة بومبي تعين الوكلاء في بغداد والبصرة وبوشهر ومسقط فتوات حكومة الهند نفسها أمر هذه التعيينات^(١) .

وأنخذت سياسة بريطانية في العراق عين هذا الجرى ققو ككلاء الشركة علاقاتهم بالولاة ، وكانت قد تحسنت صلاتهم بهم كما مر بنا في الفصل السابق ، وأخذوا يسمون في تقوية نفوذهم بواسطة جلب الاسلحة والعدات الحربية الى الولاة ومساعدتهم في مقاومة المنافسين لهم على مناصب الولاية في الاستانة . وتوسعت دائرة نفوذهم فامتدت من المدن الى القرى والقبائل ؛ وكان الولاة يفضون الطرف عن هذا الامر الخطير الخجل بسيادة الدولة والمخالف لقواعد التمثيل السياسي والتجاري .

ولما أحس الانكليز بعزم نابليون على مهاجمة الهند ، كما مر بنا ، عينوا في بغداد مقياً سياسياً دائماً ، رقى الى درجة قنصل سنة ١٨٠٢ ، واصبحت بغداد مقراً للنفوذ البريطاني في هذه الربوع . وقد عين لهذا المنصب سنة ١٨٠٨ رجل قدير يدعى للمستر كلوديبوس جيمس ريج (Claudius James Rich)

تمكن مدة الثلاث عشرة سنة التي قضاها في بغداد من مضاعفة نفوذ القنصلية ورفع مستواها حتى أصبحت مقراً للطبقة العليا وملقى كبار الموظفين والوجهاء، ومضيفاً للزائرين ومعهداً للأبحاث الأثرية، مما أدى إلى استياء داود باشا فوقع الخلاف بينها وأعلن الباشا إلغاء جميع ما للاوربيين من الحقوق في بغداد، ثم ضاعف الضرائب السكرية على البضائع الانكليزية وأخذ يعرقل أمور القنصل حتى اضطر إلى طلب مغادرة بغداد، فلم يأذن له بمغادرتها إلا بعد أخذ ورد بين حكومة الهند و بغداد والاستانة^(١).

على أن هذه الحال تبدلت بخروج داود باشا من بغداد فعاد نفوذ الانكليز إلى ما كان عليه من قبل واستمر يتوسع بسبب خوف الولاة من كتابة القنصل الانكليزي إلى الاستانة عن الأحوال في العراق والبلاد العربية وإظهار ضعف الولاة وإهالم شؤون الدولة واشتغالهم لمنافعهم الخاصة^(٢). ولما عرف شيوخ القبائل بما للعقيم الانكليزي من النفوذ وأحسوا أنه يستطيع أن يساعدهم في مقاومة الولاة والسعي لتبديلهم بالكتابة إلى الاستانة تقربوا إليه وخطبوا وده. ويذكر المستر لونكر أن هذه الفئة أحست يومئذ بان موقف بريطانيا في القرن العشرين سيختلف عن موقفها في القرن التاسع عشر، أي أنها ستمثل في القرن العشرين دوراً سياسياً خطيراً يستلزم توطيد صلات رجال القبائل معها. ولا تعرف أكان هذا الشعور منبعثاً من أهل العراق أنفسهم أم أنه كان من وحي الوكلاء البريطانيين في

(١) Longrigg ص ٢٥٤—٢٥٦

(٢) Longrigg ص ٢٧٧

هذه البلاد؟ ومهما يكن الامر فانه يشير الى جهود كانت تبذل في طي الخفاء .
ولم تنقض آخر سني القرن التاسع عشر حتى أصبح وكيل انكلترة في
العراق ممثلاً ممتازاً ومعاون الوكيل في البصرة قنصلاً ، ووكيلها في الموصل
معاون قنصل (١) .

ونشأت لانكلترة في الخليج وفي البلاد المحيطة به ، على أثر هذا
التبديل في سياستها الامبراطورية ، مصالح اخرس على جانب عظيم من
الخطورة ، ومن أهمها قضية المواصلات والمخبرات بين الامبراطورية في
الشرق ومرجعها في لندن . فقد اضطر الانكليز بعد ان أبدلوا سياستهم التجارية
بهذه السياسة الاستعمارية الى ان يعملوا على ربط أطراف الامبراطورية
بلندن باحدث وسائل المواصلات والمخبرات ليكونوا على علم بكل
ما يجري في الشرق وعلى استعداد لدفع ما قد يهدد امبراطوريتهم
من الاخطار .

وقد أشرنا في بحث استعمار الهند الى أسباب تأسيس السكك الحديدية
ومراكز البرق والبريد وسنأتي هنا على خلاصة عن مد الاسلاك البرقية
بين لندن والهند على طريق العراق والخليج الفارسي ، الامر الذي جعل
لهذه البلاد أهمية سياسية خاصة ، على ان نعود الى البحث في أمر طرق
المواصلات في موضع آخر من الكتاب .

أحسن الانكليز بالحاجة الى ربط الهند وبريطانية بالاسلاك البرقية قبيل

منتصف القرن التاسع عشر لما رأوا أن اقضاء ثلاثة أشهر على ارسال الكتاب واستلام جوابه لم يبق ملاماً لمصالحهم الاستعمارية الواسعة . وقد كانت فتنة تمرد الجنود الهندية في البنغال ولاضطرابات التي وقعت على أثرها في أطراف الهند من العوامل التي نهت الانكليز الى لزوم تأسيس وسائل المخبرات الحديثة اذ كان تأخر المخبرات بين لندن ودلهي من أهم الاسباب التي أدت الى تفاقم الفتنة . وكان توسع المصالح التجارية والاستعمارية في الهند وحاجة هذه المصالح الى وسائل المخبرات الحديثة ومسامي أصحاب مصانع الحديد لايجاد سوق جديد لصناعاتهم النامية من جملة العوامل التي سادت الحكومة البريطانية الى الاهتمام بشؤون المخبرات ايضاً .

وقد حاول الانكليز سنة ١٨٥٩ ان يوصلوا لندن بالهند بالاسلاك البرقية عن طريق البحر الاحمر ففشلوا ، ولذلك ففاوضوا الحكومة العثمانية في السنة عينها لربط خط اسكدار ببغداد فالهند فوافقت . وعلى أثر ذلك أرسلت حكومة الهند الكولونيل باتريك ستيورد ليدرس سواحل الخليج استعداداً لمد أسلاك بحرية تتصل في الفاو بالاسلاك برية تربطها بالخط التركي في بغداد . وقد ابتدأ العمل في هذا الخط سنة ١٨٦٣ وانتهى سنة ١٨٦٩ (١) .

وقررت حكومة لندن إقامة خط آخر احتياطي يمر بالاراضي الفارسية ؛ وتم لاتفاق بينها وبين الشاه على مده بين بغداد وطهران عن طريق كرمشاه على ان يتصل ببوشهر عن طريق اصفهان وشيراز ثم بالهند عن طريق البحر . ثم أنشأت خطين آخرين ربط الاول الخط الفارسي بالخط الروسي

الاوربي عن طريق التفقاز ، وكان الثاني خطأ مزدوجاً قيم بطريق طهران
وخصص للمخابرات مع الهند فقط ، وقد افتتح في ٣١ كانون الثاني
سنة ١٨٧٠ .

والمف الانكليز الشركة الشرقية سنة ١٨٦٧ لاعادة محاولة مد الخط
البحري ، بعد ان فشلوا في السكرة الاولى ، فتمكنت من وضع الاسلاك
البحرية بين انكلترا وجبل طارق ثم في البحر الابيض المتوسط الى مالطة
فالسويس فعدن . وقد افتتح هذا الخط سنة ١٨٧٠ .

ولابد من ان يتبين القاري أهمية العراق والخليج في أمر المخابرات
البرقية بعد ان رأى مما سببنا لزوم هذه الخطوط للمصالح الاستعمارية في الهند
وحاجة الرأسمالية الصناعية في انكلترا اليها وعرف ان لا سبيل لهذه الخطوط
من الوصول الى الهند الا بعد المرور بهذه الطرق ، لوعورة الطريق البري في
شمال الهند ، ولمدم استقرار الامور في الافغان .

وقد تمكن الانكليز في مدة وجيزة من مد الخطوط البرية والبحرية
الآتية ، بين الهند وأطراف الخليج فكان لذلك أثر عظيم في توسع مصالحهم
الاستعمارية في الخليج وفي البلاد المجاورة له :

- ١ - الخط البحري بين كراچي وجسك وقد افتتح سنة ١٨٦٨ .
- ٢ - الخط البري المزدوج بين كراچي وجسك وقد افتتح سنة ١٨٦٩ .
- ٣ - الخط البحري بين جسك وهنجام وقد تم انشاؤه سنة ١٩٠٤ .
- ٤ - الخط البحري بين هنجام وبوشهر وقد اكمل سنة ١٩٠٤ كذلك .
- ٥ - الخط البحري بين جسك وبوشهر وقد اكمل سنة ١٨٨٥ .

٦ - الخط البحري البري بين هنجام وبندر عباس ماراً بالجزيرة الطويلة وقد اكمل سنة ١٩٠٥ .

٧ - الخط البحري بين بوشهر والفاو وقد افتتح سنة ١٨٦٤ .

٨ - الخط البحري بين جسك ومسقط وقد افتتح سنة ١٩٠١ .

ومع ان هذا الانقلاب في السياسة البريطانية في الخليج وفي البلاد المحيطة به أدى الى ان تتقدم المصالح السياسية الاستعمارية على المصالح التجارية فيه ، وكانت هي المتقدمة من قبل ، غير ان الرأسماليين الانكليز لم يكن ليفوتهم تقدير المجال الواسع الذي سينفتح لبضائعهم بعد ان بسطت بريطانيا نفوذها في الخليج وفي البلاد المجاورة له . وكانت ضعف النفوذ البريطاني في الخليج قد أدى الى ان تفكر شركة الهند الشرقية بقطع صلاتها التجارية به بعد ان اشتدت منافسة الهولانديين لها فيه ^(١) . غير ان هذا التبدل في سياسة بريطانيا في هذه الجهات بعث الحياة في تجارتها ، وكانت الحكومة البريطانية نفسها تعمل على تقوية هذه المصالح التجارية لتتخذ من ذلك ذريعة للتدخل في شؤون الخليج ومبرراً في اتفاق ما تجمهه من دافع الضريبة في سبيل تأمين مصالح الاستثمار الذي تنحصر فائدته بالرأسماليين وحدهم .

وكانت الحكومة الانكليزية تحبذ للمتاجرين الاتصال بهذه الجهات وتصور لهم الخليج موصلاً للأسواق وملتقى للطرق التجارية العظيمة التي

تخترق بلاد فارس فتتصل بالهند وتركستان والصين ، والبصرة ميناءً خطيراً
وفماً لتجارة العراق والشرق الأدنى ، والقبائل العربية في صحاريها مصرفاً
عظيماً فهي تتمد بالملايين وإذا اشترى كل فرد من جموعها ذراعاً من المنسوجات
القطنية كل سنة صرفت منشستر الكهيات الجسيمة من منتوجاتها .

وكان وضع الخليج والبلاد المحيطة به مما يغري الباحثين عن الاسواق
والواد الخام ، اذ ان المواني على سواحل الخليج الشرقية هي رؤوس طرق
قديمة مهمة كطريق بندر عباس الذي يتصل بكرمان فيزد فالمشهد ، وطريق
لنجة الذي يؤدي الى لورستان ، وطريق بوشهر الذي يتصل بشيراز
والطريق الذي يوصل المحمرة بششتر .

وكان العراق فيما مضى ملتقى الطرق التجارية بين الشرق والغرب .
وكانت البصرة من أهم مواني العالم ، تأتي السفن التجارية اليها من المحيط
الهندي ومن جهات الخليج تنزل فيها أحماها فتنتقل منها الى بغداد وتوزع
على ثلاثة طرق : يتصل الاول بالموصل ، عن طريق دجلة ، ثم بحلب ؛
ويتصل الثاني بالفلوجة ، وكانت القوافل تقطع منها صحراء الشام الى سورية ؛
ويتصل الثالث بابران عن طريق كرمشاه . ولا تزال هذه الطرق باقية
آثارها حتى الوقت الحاضر (١) .

ومن اولي البعثات التي أوفدها الانكليز الى العراق بعثة جسني
(Chesney) التي سميت لدرس شؤون العراق التجارية والاقتصادية ، بالاضافة
الى الامور السياسية الاخرى التي جاءت من أجلها فتكهننت بمستقبل باهر

للتجارة بعد ان يصبح الفرات صالحاً لسير السفن ويكون طريق التجارة بين البحر الابيض والخليج .

وكان مما زاد في قيمة هذه البلاد التجارية بنظر البعثة قدرتها لشراء مقادير كبيرة من مواد التجارة الانكليزية الهندية كالسكر والشاي والمنسوجات القطنية . وكان من رأي البعثة ان الانكليز لو تجروا معها رأساً لتضاعفت قدرتها على الشراء ، اذ كان التجار من الوطنيين يتعاونون البضائع بعد ان تمر بايدي كثير من الوسطاء فتضاعف أسعارها ، حتى ان البعثة لاحظت ان قطعة من القماش قيمتها في منفستر لا تزيد على ثلاثة عشر شلناً كانت تباع في هذه الاسواق باثنين وثلاثين شلناً ، بينما لو استوردتها شركة انكليزية لاستطاعت ان تنزل هذا السعر الى النصف فتضاعف بذلك قدرة السوق للشراء . ولاحظت البعثة ان التجارة الروسية كانت تهدد التجارة الانكليزية في أسواق ايران والعراق وكرديستان لأن أسعار بضائنها كانت أقل بكثير من أسعار البضائع الانكليزية .

ورأت البعثة ايضاً ان صادرات العراق ومن أهمها الحبوب والتمر ومواد اخرى لازمة للصناعة الانكليزية كالصوف والجلود والنفص وعرق السوس والثمار المجففة وشمع العسل والزرنبيخ ، ليس مما يجوز اهماله . كما ان في استطاعة ايران ان تصدر مقادير لا يستهان بها من هذه المواد عدا ما تصدره من السجاد والثمار المجففة والقطن . وكانت جميع هذه المواد تباع بأسعار بخسة جداً ، فالقطن من النفص الجيد مثلاً كان يباع في أسواق الموصل بتسعمائة وثلاثين غرشاً ، ويكون سعره بعد نقله الى الاسكندرية نحو الف وثلثمائة غرشاً ، أي

مالا يزيد عن اثنين وخمسين شلنًا. وتبين للبعثة ان الشركات لو ضبطت
تجارة الموصل اتم لها القبض على تجارة ديار بكر وماردين ، وهما مركزان
لا يستهان بهما اذ تمتد منهما الطرق التجارية الى آسية الصغرى وفيها أسواق
واسعة للسكر والمنسوجات القطنية والحربية^(١).

ولما اشتدت المنافسة الاستعمارية بين انكلترة وروسية القيصرية ، في
أواخر القرن التاسع عشر ، قدم اللورد كرزن - الاستعماري المتطرف الذي
كان نائباً للملك في الهند - للوزارة البريطانية بتاريخ ٢١ ايلول سنة ١٨٩٩
بياناً مفصلاً حول أهمية الخليج والاراضي المحيطة به ولزوم تقوية النفوذ
البريطاني فيه لضمان سلامة الهند ، وأظهر الحاجة الى سلوك سياسة جديدة
تكون أكثر حزمًا واقدامًا^(٢) ، فايد اللورد هملتون ، وكان وزير الهند ،
في جوابه المؤرخ في ٦ تموز سنة ١٩٠٠ رأي حكومة الهند وطلب اليها ان
تضاعف الجهود في رعاية مصالح الامبراطورية في هذه الاماكن ، وان تحتاط
الى ما قد يأتي به المستقبل ، وأشار من طرف خفي الى جهود كانت تبذل
يومئذ لتثبيت نفوذ انكلترة في البلاد المحيطة بالخليج^(٣).

وكانت روسية كلما حاولت ان تؤسس لها محطة في الخليج وجدت في
معارضة انكلترة عقبة لا تستطيع التغلب عليها ، حتى عمدت مرة الى الاحتيال

(١) Chesney ج ٢ ص ٧٠٢-٧٠٣

(٢) British Documents, Vol. IV ص ٣٥٨-٣٦٢

(٣) British Documents, Vol. IV ص ٣٦٤

ولكن الانكليز فطنوا الى دخيلة الامر فلم يتمكنوا من تحقيق أمنيته .
وذلك ان احدى السفن الروسية رست في بندر عباس واشترت كمية كبيرة
من الفحم شحنت قسماً منه وادعت انه لم يبق مكان للتقسيم الآخر فأرادت ان
تبقية في الميناء على ان تعود لشحنه ولكن الانكليز طلبوا الى حكومة الشاه
ان ترفض طلب السفينة الروسية وتصر على لزوم شحن الفحم بالجمعه فتعلمت

ثم شاع ان روسية تنوي إقامة خط حديدي تكون نهايته الكويت ،
فحدث ذلك ضجة عظيمة في الاوساط السياسية الانكليزية ساءت الحكومة
الى عقد اتفاقية جديدة مع أمير الكويت حددت حرية تصرفه بأملاكه ،
وأعلن اللورد لونسدون « تصريحه الشهير » في قاعة مجلس اللوردات في
٥ مايس سنة ١٩٠٣ حيث قال ، مهدداً الدول ولاسيما روسية والمانية :

« انفاً تعتبر تأسيس أي دولة اخرى قاعدة بحرية او ميناءً محصناً في
الخليج الفارسي تجاوزاً على المصالح البريطانية من واجبنا ان نرده بكل
مالدينا من الوسائل ^(١) . »

وكاد يكون تنافس الدولتين على الخليج سبباً في نشوب حرب بينهما .
على ان انكاثرة جنحت للحكمة في التفاهم بعد ان دخلت المانية ميدان التنافس
ايضاً . وأيد سياسة التفاهم فريق من الساسة الانكليز في طبيعتهم السر
اوكونور ، سفير بريطانيا في استانبول ^(٢) . فاقتهى الامر بعقد « اتفاقية

(١) ص ١٣٤٧ — ١٣٤٨ من محاضر جلسات مجلس اللوردات :

House of Lords, Forth Series, Vol. 121, 1903

(٢) British Documents, Vol III ص ٣٨٢

سنة ١٩٠٧ « بين انكلترة وروسية التي سويت بها اختلافات الدولتين فيما يتعلق بمطامعها الاستثمارية في ايران والنيبت والافغان . وقد قسمت بلاد ايران بمقتضى هذه الاتفاقية الى ثلاث مناطق نفوذ ؛ تكون الشمالية منها منطقة نفوذ لروسية القيصرية ، والجنوبية منطقة نفوذ لبريطانية ، وتكون المنطقة الوسطى منطقة محايدة تشترك الدولتان في تقرير مايتعلق بها . وبهذه الاتفاقية تخلصت انكلترة من المنافسة الروسية في سواحل الخليج الفارسي اذ لم يبق لروسية طريق الى الوصول اليها .

ونشأت في أوائل القرن العشرين مصالح اخرى لبريطانية في الخليج باكتشاف النفط في ايران . وذلك ان وليم نوكس دارسي ، وكان محام في استراليا أثرى باكتشاف معدن الذهب في قطعة أرض كان يمتلكها هناك ، سمع بوجود النفط في بلاد ايران فوافد أحد الجيولوجيين ليستطلع الامر فلما استوثق منه جاء الى ايران واستطاع ان يقنع الشاه سنة ١٩٠١ بان يمنحه امتياز استخراج النفط والغاز والزلفت في البلاد الايرانية عدا المقاطعات الخمس الشمالية . ولما باشر العمل وجد ان ما كان لديه من المال لا يكفي للاقيام بهذا المشروع الجسيم فاضطر ان يفاوض الرأسماليين الانكليز فتألفت شركة النفط الانكليزية الفارسية سنة ١٩٠٩ لاستخراج النفط بمقتضى الامتياز الذي استحصله دارسي (١) .

ولما أدرك الساسة الانكليز ورجال الاسطول ان سيكون للنفط أهمية

كبرى في الحروب المقبلة تدخلت الحكومة الانكليزية في شؤون هذه الشركة ، وأوفد السير ونستن شرشل - وكان وزيراً للبحرية - بعثة لدرس ميادين النفط الفارسية وتقديم تقرير عن درجة أهميتها للاسطول البريطاني ، وقررت الحكومة البريطانية على أثر ادلاء هذه البعثة بنتائج درستها ان تؤيد شركة النفط الانكليزية الفارسية في بلاد ايران ، ثم صرح المستر شرشل في مجلس العموم في تموز سنة ١٩١٣ ان وزارة البحرية منزمة على امتلاك عدد من الحصص يضمن لها السيطرة في ادارة الشركة وتجهيز الاسطول بما يحتاج اليه من هذه المادة الحيوية . وقد تحقق ما صرح به المستر شرشل بعد ذلك ببضعة أشهر (سنة ١٩١٤) . وهكذا أصبحت الحكومة البريطانية تملك القسم الاعظم من أسهم هذه الشركة وتحنم عليها ان تحمي مصالح هذه الشركة بقوة السلاح ، ان استلزم الامر ، حتى كانت السبب الاول للحملة التي جهزتها بريطانيا على العراق عند إعلان الحرب على الدولة العثمانية عام ١٩١٤ ، كما ادعى الانكليز ، رغبة انكسرة في حماية منطقة شركة النفط الانكليزية الفارسية في عبادان .

وقد ازدادت أهمية الخليج من هذه الوجهة باكتشاف معدن النفط في البحرين واحتمال اكتشافه في الساكن اخرى من الخليج حيث قد نشطت الشركات الانكليزية في اجراء التحريات عن هذا المعدن الثمين .

وقد أصبح الخليج في الوقت الحاضر ، ولاسيما الجهة العربية منه ، محراً لطائرات شركة الطيران الامبراطورية فاكسب بذلك موقماً جديداً في السياسة الامبراطورية بالنظر لأهمية الطيران في الوقت الحاضر وما سيكون له

من الأهمية في المواصلات والحروب في المستقبل . والانكليز في الخليج لأن
ثلاث محطات طيران في الكويت والبحرين والشرجة .

وأخر ما جرى من التبدلات في الخليج تنازل بريطانية عن محطتي
هنجام وباسيدو (الأولى في جزيرة هنجام والثانية في جزيرة قشم) بناءً
على الاستياء الذي أثاره وجودها في أملاك الدولة الإيرانية وبالنظر إلى مرور
الخط الجوي البريطاني من سواحل الخليج الشرقية حيث كانت تريد
الحكومة البريطانية - على ما يظهر - أن تمرركزواها .

وقد اتخذت الحكومة البريطانية مكاناً لائقاً في الطرف الشمالي الشرقي
من جزيرة البحرين . ابتاعته وزارة البحرية الانكليزية من الشيخ عيسى
الخليفة شيخ البحرين في سنة ١٩٣٤ لتجعل منه محطة بحرية عوضاً عن
محطتي هنجام وباسيدو ، وهو قريب من مكان صالح لرسو البواخر وفيه
مجرى ماء صالح للشرب ، والمسافة بينه وبين عاصمة البحرين لا تزيد عن
ثلاثة أميال (١) .

وقد صرح السير جون سيمون جواباً على سؤال وجه إليه في هذا
الموضوع فقال : « لقد توقف استعمال المحطة البحرية في باسيدو بجزيرة
قشم الإيرانية من قبل سفن صاحب الجلالة منذ سنة ١٩١١ . وزارت
حكومة صاحب الجلالة مؤخراً ان المصالح البريطانية في الخليج يمكن صيانتها
على الوجه المطلوب بنقل هذه المحطة إلى البحرين في الجانب العربي من الخليج .
والمفاوضات جارية الآن مع الحكومة الإيرانية لصيانة المقبرة البريطانية

(١) التامس اللندنية في ٨ نيسان ١٩٣٥

في باسيدو (١) .

وعما هو جدير بالذكر ان الصحف البريطانية وفي جملتها التايمس اللندنية نوهت باعتبار البحرين تحت الحماية البريطانية فرد عليها وزير ايران القوض في لندن يقول ان تلك الحكومة الايرانية لم تعترف قط بالحماية البريطانية على البحرين وانها لا زالت تعتبرها جزءاً من الاراضي لايرانية كان ايران لم تتنازل عن سيادتها على البحرين كما يظهر من المحادثات بين الحكومتين حول هذا الموضوع ، وقد احتجت أخيراً على منح امتياز استخراج النفط في هذه المنطقة (٢) .

وبريطانية مجددة في الوقت الحاضر في توطيد نفوذها في جهة الخليج العربية بالنظر الى التطورات التي حدثت مؤخراً في ايران . وقد حصنت الدبي قبل مدة وعبرة ، ويستدل مما جاء في صحفها انها تنوي تحصين مراکز اخرى في جهات الخليج العربية .

(١) التايمس اللندنية في ٤ نيسان سنة ١٩٣٥

(٢) Morning Post في ٩ نيسان ١٩٣٥

الفصل الرابع

وادي الفرات اقصر الطرق الى الهند

بعد ان أصبح أمر حماية الهند وتقريب المسافات بينها وبين انكلترة الشغل الشاغل للسياسة الامبراطورية منذ أواخر القرن الثامن عشر ، و بعد ان أظهرت خطط نابليون لمهاجمة الهند ان طريق رأس الرجاء الصالح لم يبق صالحاً لضمان المنافع الاستعمارية في الهند ولدفع الاخطار التي تتهددها ، وان مصر - وهي الجسر بين البحر الابيض المتوسط والبحر الاحمر - موضع خطر على الامبراطورية اذا قبض عليه عدو لبريطانية ، رأى ساسة انكلترة ومن ورائهم رجال الرأسمالية فيها ان قد بات من المحتم عليهم مراقبة شؤون الشرق الادنى وحماية الدولة العثمانية من روسية والنمسة الطامعتين في اقتسام أملاكها على ان تبقى ضعيفة لا تستطيع ان تمنع تبسط النفوذ البريطاني في بلادها ، ورأوا كذلك ان يحولوا دون نشوء دولة قوية في مصر او سيطرة دولة أجنبية غير بريطانية على شؤونها . وكان من نتائج هذه السياسة ان مثلت بريطانيا دوراً خطيراً في جميع أدوار القضية الشرقية ، وقاربت محمد علي الكبير لما أراد ان يوحد بين سورية ومصر ويؤسس فيها دولة حديثة ذات شأن ، واشتركت في حرب القرم فارغمت قبصر روسية على نقض معاهدة سن ستيفانو مع الدولة العثمانية وقبول مقررات مؤتمر برلين الذي ربح فيه الانكليز جزيرة قبرص وحاولوا ان يرغموا السلطان على إدخال بعض الاصلاحات الطفيفة في مملكته المتداعية بقصد إيقاف تدهورها ولوالى حين . وكان أمر

حماية الهند وتقريب المسافة بينها وبين لندن كذلك من أهم الدوافع في اهتمام انكلترة بوادي الفرات ، حيث قام الانكليز بمحاولات عديدة لتمهيد طرق للملاحة في الفرات ومد السكك الحديدية بين البحر الابيض المتوسط وسواحل الخليج في هذا الوادي كما سيأتي بيانه

وكانت سياسة انكلترة في الشرق الادنى اول الامر ، سياسة سلمية انطوت على مقاومة توسع النفوذ الروسي في الدولة العثمانية ومعارضة النفوذ الفرنسي في مصر ، وكان نفوذ فرنسا قد قوي فيها بسبب اعتماد محمد علي الكبير على الفرنسيين في القيام باصلاحاته . فلما شرع فرديناند دي ليسيس يسعى لتحقيق مشروع ترعة السويس الذي اراد نابليون القيام به فاحقق ، قاومته انكلترة مقاومة كادت تودي الى إحباط مساعيه . وبالرغم من ان دي ليسيس الذي كان مقرباً لدى الخديو عباس باشا في ٣٠ تشرين الثاني سنة ١٨٥٤ استطاع ان يحصل على امتياز حفر القناة لسكنه وجد نفسه مضطراً للحصول على مصادقة السلطان على هذا الامتياز بحكم السيادة الاسمية التي كانت لاسلطان على مصر ، فقاومه اللورد ستراتفورد رودكاف ، سفير انكلترة في استانبول ، مقاومة اضطر بسببها ان يعود الى فرنسا ليستعين بالامبراطور نابليون الثالث والامبراطورة يوجين ، وكان يعتقد انه سينال مناصرتها اذا ما أظهر لها ان لهذا المشروع علاقة كبيرة بتعزيز النفوذ الفرنسي في مصر وان انتصار السياسة الانكليزية في مقاومته يؤدي حتماً الى خذلان سياسة فرنسا فيها وفي استانبول ، ولكن الامبراطور والامبراطورة لم يستطعا التغلب على انكلترة في هذا الامر ، فاضطر دي ليسيس ان يذهب الى لندن ليقتنع سياسة الانكليز

ويكتسب تأييد الرأي العام فيها . فقاومه رجال انكلترة مدعين ان المشروع غير قابل للتطبيق من الوجهة الهندسية وانه يحتاج الى مبالغ طائلة لا ينتظر ان تسدّ أرباحها مما يعود به بعد انجازه ، ولأجل ذلك قالوا بان فرنسا لا تريد بهذا المشروع سوى تعزيز نفوذها في مصر^(١) .

وقد اهتم الانكليز في هذه الاثناء بانجاز طريق الفرات بقصد صرف نظر أصحاب رؤوس الاموال والرأي العام عن مشروع قناة السويس واتخاذ الاحتياطات اللازمة لمقاومة نفوذ فرنسا في حالة نجاح المشروع وتعزيز نفوذها في مصر . وبقي طريق الفرات موضوعاً على بساط البحث الى ان تم الانكليز القبض على قناة السويس بشرائهم أسهم الخديو اسماعيل باشا وبايجادهم باباً للتدخل في شؤون مصر بحجة حماية مصالح الدائنين من الرأسماليين الانكليز .

ثم اهل المشروع حيناً من الزمن حتى عاد الى الوجود في الثلث الاخير من القرن التاسع عشر حين قيام الحركة العربية في مصر ، وتقدم نفوذ روسية في تركستان والافغان وفارس . غير ان ظهوره هذه المرة كان قصير الامد ، اذ تنوسي مرة اخرى بنحمود الحركة العربية وتوقف روسية عن التقدم نحو الهند ، وتنوسيت معه مشاريع السكك الحديدية بين اوربا والخليج . الى ان عاد الى الوجود للمرة الاخيرة بمحاولة روسية في أواخر القرن التاسع عشر انشاء سكة حديد تكون نهايتها في الكويت ، وسمي المانية لانشاء

(١) Fitzgerold, Percy (The Great Canal at Suez, Its Political and Financial History, With an Account of The Struggle of its Projector) in two Volumes. (London 1876)

كانت أنظار الانكليز قد اتجهت نحو الفرات على أثر المحاولات التي قام بها ناليون المهاجرة لهند ، لكن اهتمامهم هذا لم يخرج الى حيز العمل الا بعد الربع الاول من القرن التاسع عشر يوم تأسست في انكلترا لجنة لدرس مشروع الفرات . وكانت الحكومة الانكليزية قد أعلنت سفيرها في الاستانة (اللورد سترايتفورد رود كلف) برغبتها في الحصول على معلومات ضافية عن الفرات ، وصادف ان مر باستانبول يومئذ السكبتن جسني أحد ضباط المدفعية البريطانية ، وهو في طريقه الى لندن بعد انجازته بموثة العسكرية على الحدود الروسية التركية ، فسمع من السفير برغبة حكومته . وكان الضابط شاباً يتعشق المخاطرات والمغامرات فلم يتردد في قبول تولي هذه المهمة ، وتعمد ان يقوم بها على مسؤوليته وحسابه لأن الحكومة لم تكن خصصت لها يومئذ شيئاً من المال .

وصل السكبتن جسني دمشق في تشرين الثاني سنة ١٨٣٥ فسمع فيها بنهر ثلاثة ضباط من الانكليز أرادوا ان ينحدروا في نهر الفرات الى مصبه فهلكوا ولم يقع أحد لهم على أثر . على ان جسني لم يثنه هذا الخبر عن عزمه فانضم الى قافلة كانت سائرة في طريق الفرات حتى وصل الى (عنه) فمارض واتخذ من هذا التمارض ذريعة للانفصال من القافلة وأقنع بعض أهالي القرية ان ينشؤوا له طوافه ينحدر عليها في الفرات فركبها هو وأربعة من أهالي القرية فيهم مترجم ودليل . وكان يجلس في مؤخرتها ويده عمود من الخشب ،

طوله عشرة أقدام ، يسير به غور النهر ليثبت المحلات التي يقل عمقها عن هذا المقياس في مذكرة كانت معه فكان يدون فيها كذلك التفاصيل عن ضفاف النهر وأسماء القرى التي يمر بها وعدد دورها ونفوسها . وقد وصل « هيت » بعد خمسة أيام من يوم مغادرته (عنه) ، ثم وصل « الفلوجة » بعد خمسة أيام أخرى . ووصل بغداد في أوائل سنة ١٨٣١ فاقام في دار الوكيل الانكليزي بضعة أيام رحل بعدها الى البصرة وتوغل في وادي نهر كارون ، وعاد بعد ذلك الى انكلترا يحمل مذكراته وخريطة موجزة لنهر الفرات (١) .

قدم جسي عن رحلته هذه تقريرين وقفت على واحد منهما (٢) ، اما الآخر فقد نوه عنه في تقريره الاول مشيراً الى انه تقرير سري شرح فيه أهمية بغداد والعراق للامبراطورية البريطانية . وقد قابل في تقريره الاول بين طريق الفرات والبحر الاحمر فقال : ان الاول أقصر من الثاني بمائة وسبعين ميلاً ، وان من فوائد طريق الفرات عدم تعرض السفن فيه لرياح تعوق سيرها كما هو الحال في البحر الاحمر في موسم الرياح الموسمية ، وان السفن في هذا الطريق لا تحتاج الى حمل كثير من الوقود اذ تستطيع ان تحصل على ما تحتاج اليه من الخشب والفحم العادي من القبائل على ضفاف النهر . وذكر

(١) خلاصة هذه الرحلة مأخوذة عن :

De Warren, (European Interests in Railways in The Valley of The Euphrates)

اما التفاصيل فوجوده في كتاب جسي عن هذه الرحلة وقد مر ذكره

The Results of an Examination of The Red Sea and The (٢)

Euphrates. Submitted by F. R Chesney, Captain in The Royal Artillery. Feb. 2, 1833

من مساوئها احتمال مهاجمة القبائل للسفن ، وحاجة السفن الى اتخاذ الحيطة الدائمة ، ووجود بعض الشلالات القوية ؛ لكنه رأى ان التغلب على هذه العقبات أمر سهل اذا استرضيت القبائل على ضفتي النهر . وقال انه يرى ان خطر القبائل يزول بتحضرها ؛ ولم يكن ذلك في نظره أمراً عسيراً . وذكر كذلك ان طريق الفرات عدا أهميته التجارية والدفاعية ، يقرب المسافة بين ايران وانكلترة اذا فتح طريق بين الفلوجة وطهران او بين الفلوجة وتبريز .

واهتم الانكليز للأمر فانتخب البرلمان سنة ١٨٣٤ لجنة لدرس المشروع ، وأظهر الملك وليم الرابع رغبة كبيرة في ايجاد المهند بانكلترة عن طريق الفرات ، ثم قرر البرلمان ارسال بعثة لدرس الطريق (خصص لها عشرين الف جنيه) بقيادة جسي الذي رقي الى رتبة كولونيل .

وابتدأت البعثة برحلتها في الفرات في ١٦ مارت سنة ١٨٣٦ في باخرتين صنعتهما خصيصاً لهذا الغرض وسميتا دجلة والفرات . وصادفت الباخرتين في طريقهما زوبعة أغرقت الباخرة (دجلة) فوصلت الباخرة (فرات) وحدها الى البصرة بعد ان كابدت المشقات والاهوال لكثرة الشلالات والصخور .

وجاء في تقارير أعضاء البعثة : ان النهر يكون صالحاً للملاحة اذا رفعت منه العوارض الصخرية وأتمن جانب القبائل على ضفتيه بالاتفاق معها ؛ وكان تحقيق كلا الأمرين في نظر البعثة سهلاً .

ومما بلغت النظر في هذا الشأن ، ذكر جملة من أعضاء البعثة ان بعض

قبائل الفرات طلبت الحماية الانكليزية ؛ وكان رأيهم ان من السهل تكوين العلاقات السياسية معها (١).

وظهر بعد ذلك مشروع وصل الخليج الفارسي بالبحر الابيض المتوسط بسكة حديد . وكان أول من اقترح القيام بهذا المشروع أحد موظفي السكك الحديدية في الهند سنة ١٨٣٠ فلم يستلقت اقتراحه النظر أول الامر . لكن فريقاً من أدركوا أهمية المشروع يومئذ جعلوا يشنون له الدعاية ؛ وكان في مقدمتهم السير وليم اندرو الذي ألف « شركة حديد وادي الفرات » سنة ١٨٥٦ وعين الجنرال جيني رئيساً للمهندسين فيها . وقد أيدته اللورد بالمرستون والسير سترا تفوردي بنية مقاومة مشروع قناة السويس (١).

وراجعت هذه الشركة السلطان للحصول على امتياز المشروع فاذن لها بإنشاء القسم الاول منه ، وهو القسم الذي اريد منه بين السويدا وحلب . ولكن الشركة عجزت عن جمع المال اللازم للقيام به ، وقد قدر بعشرة ملايين ليرة انكليزية ، بالرغم من الدعاية الواسعة النطاق التي بثتها في الصحف والوفود التي تقدمت بها الى الحكومة الانكليزية ، وهي تضم أعظم رجال الانكليز ، تطلب المعونة فلم تنل منها غير الماطلة والوعود .

ولعل أهم ما وقف في سبيل نجاح هذه الشركة إنبجام أصحاب رؤوس

(١) الف عن رحلة هذه البعثة كتب عدة أهمها كتاب جيني الذي مر ذكره وهو كتاب ضخيم بأربعة مجلدات ؛ ثم كتاب Ainsworth طبيب البعثة بمجلدين وهو :
A Personal Narrative of The Euphrates Expedition.

(٢) De Warren من ٨ و Earle من ١٧٦

الاموال عن ثراء أسهم المشروع الذي كان في نظرهم محفوظاً بالمخاطر مجهول العاقبة . وكانت الحكومة أول الامر تتظاهر بتأييده ، واهتم البرلمان به فمين لجنة لدرسه ؛ لكن معاضدة الحكومة والبرلمان لم تخرج عن نطاق الكلام اذ انها رفضا تخصيص مبلغ من المال لمساعدته .

والذي يتتبع البحث الذي جرى في هذا الموضوع يومئذ يرى ان الدوافع للاهتمام به كان أغلبها سياسياً دفاعياً يرجع الى خوف الانكليز من وقوع ما يسبب سد قناة السويس والى فزعهم من تقدم روسية نحو الهند .

اما خوفهم على قناة السويس فقد شرحه السير كارنت ولسلي (Garnet Wollesly) في خطبة ألقاها سنة ١٨٧٨ في إحدى الجمعيات السياسية بلندن حيث قال :

« لقد أشار المستر كورى الى سهولة تخريب القناة ، واتي »

« واثق ان أكثر الحاضرين قد فكروا في هذا الامر »

« تفكيراً جدياً ، فتخريب القناة من أسوأ الامور لمن »

« يريد ذلك كما لا يخفى على كل مطلع . فمن السهل »

« سدها باضراق عدد من سفن القناة القديمة وهي ملأى »

« بالحجارة فيها ، كما ان انفجار نسافة فيها وهي بوضع »

« خاص يكفي لقطع طريق المرور منها عدة أشهر أو سنة »

« كاملة . ويجوز ان يعطل طريق السير فيها بادخال سفن »

« تجارية ضخمة واضراقها فيها . وبها يمكن الامر فنت »

« السخف المفرط ان نعتد على قناة السويس وحدها »

« للاتصال بممتلكاتنا الشرقية وقت الحرب ^(١) . »

وخلل الانكاز ان الخطر يهدد القناة من ناحيتين : فاما ان ينسفها الثوار للصربون و يقطعوا عنها قناة الاسماعيلية او ان روسية ترسل عدداً من سفنها القديمة فتفرقها فيما عمداً .

وكانت قزع الانكاز من روسية يشتد كلما اقتربت الخطوط الحديدية الروسية في تركستان نحو الهند ، لاسيما بعد ان اوصحت روسية تفليس بياكو بسكة حديد تقرب المسافة بين بطرسبرغ وعشة اباد خمسة ايام ، وصارت تمسح تركستان تمهيداً لإقامة الخطوط الحديدية ، وكانت تسمى كذلك الى مد الخطوط الحديدية في بلاد ايران ايضاً ، مما يقرب المسافة بين روسية وهيرات باب الهند .

وخير ما جاء في وصف الخطر الروسي وبيان أهمية سكة حديد وادي الفرات ما تقتطفه فيما يلي من رسالة كتبها البارون فون كوهنفيلد (Kohn Von Kohnenfeld) رئيس أركان الجيش النمساوي سابقاً ^(٢) :

« ان روسية لن تتقدم الى الخليج بطفرة واحدة او بحرب »
 « طاحنة ، انما سوف تغتم ارتباك الاحوال في داخل »
 « القارة الاوربية عندما تشغل دول هذه القارة بمعالجة »
 « مشاكلها الداخلية ، فتخطو نحو الخليج خطوة اثر »

Andrew, The Euphrates Valley Route to India. (١)

Kohn Von Kohnenfeld., The Strategic Importance : وهي (٢)
 of The Euphrates Valley Railway. Translated by Sir C. W.
 Wilson. (London 1873)

- « خطوة بفتح قطعة بعد اخرى من ارمينية ، وبالسير على »
 « خبوء و بخارى ، وبالاستيلاء على بعض أجزاء المملكة »
 « الابرانية . »
- « وأهم الطرق التي ستنتجها أنظار روسية اليها في هذا »
 « الفتح العظيم هي :
- « ١ - الطريق بين قارس ووادي الفرات ماراً بالعراق . »
 « ٢ - الطريق بين اريقان والعراق عن طريق الموصل »
 « في وادي دجلة ماراً ببغداد بعد التقاطع مع الطريق الاول »
 « ٣ - طريق تبريز - شستر . »
- « ٤ - طريق طهران - شستر - اصفهان ، ومنها »
 « الى الخليج الفارسي . »
- « واذا قبضت روسية على الفرات سهل عليها افتتاح »
 « سورية وآسيا الصغرى عن طريق حلب وانطاكية . »
 « ومن المعلوم ان وادي الفرات الممتد عرضاً بين رأس »
 « الخليج الواقع في شمالي انطاكية ورأس الخليج الفارسي »
 « كقطر لجسم رباعي زاو بتاه الفريبتان على البحر الابيض »
 « المتوسط وزاو بتاه الشرقيتان على بحر قزوين والخليج »
 « الفارسي ، هو ملتحق جميع هذه الطرق . »
- « ولذلك فان القبض على هذا الوادي يؤدي حتماً الى »
 « السيطرة على جميع الاراضي الواقعة ضمن الجسم الرباعي »

« الآنف الذكر . فيجب إذا ان تنحصر مقاصد روسية »
 « السياسية والدفاعية في القبض على خط الفرات ، كما »
 « يجب ان تكون غاية أعدائها الحيلولة دون وقوع ذلك »
 « بكل ما اوتوا من قوة .

« وعلى هذا فان أهمية السكة الحديدية الممتدة في هذا »
 « القطر الذي يوصل انطاكية بالخليج الفارسي امر مسلم »
 « به ، اذ انها ستكون السبيل الوحيد لتعبئة الجيوش »
 « اللازمة في أي لحظة سواء على الفرات او في القسم »
 « الشمالي من أرض الرافدين ، لمهاجمة أطراف الجيش »
 « الروسي وايقاف تقدمه .

« وقد يبدو لأول وهلة ان تقدم روسية نحو الشرق »
 « لا يهدد غير تركية وایران ، ولكن لا الاولى وحدها »
 « ولا الثانية ولا كلتاها معاً تستطيعان دفع هذا الخطر »
 « دون معونة أجنبية ؛ وهذه للمعونة لا تتقدم بها غير »
 « انكلترة التي لا بد ان يقع النزاع بينها وبين روسية على »
 « السيادة في هذه الجهة الآن او في المستقبل .

« وسيكون لسكة حديد وادي الفرات في هذا النزاع »
 « العنيف من القيمة الحربية ما لا يقدر . وان انشأها »
 « منذ الآن لما يساعد على مقاومة سياسة روسية في آسيا ، »
 « إذ أن هذه السكة سوف تبرز قوة انكلترة في الشرق »

- « وتزعزع المقام السياسي لروسيا فيه .
 « وان توسع نفوذ روسيا يهدد اوربا باجمها بالاضافة الى
 « الدول الآفة المذكور ، لأن روسيا لا بد ان تهاجم
 « القسطنطينية ، محط آمالها ، عند أول تمكنها من آسيا
 « الصفراء ، وان تستحوذ على تجارة البحر الابيض
 « المتوسط وتقبض على برزخ السويس (١) .
 « ومهما يكن انقاذ السويس من الاهمية لاوربا فانها في
 « منزلة ثانوية بالنسبة لسكة حديد وادي الفرات التي
 « تهيئ السبيل الوحيد لمنع روسيا من التقدم في آسيا
 « الوسطى والحماية قناة السويس .

وكان أنصار مشروع سكة حديد وادي الفرات يدعون ان في جملة
 منافع هذا المشروع :

- ١ - انه يوصل البحر الابيض المتوسط بالخليج الفارسي ، ولذلك
 أهمية كبرى من الوجهتين السياسية والتجارية .
- ٢ - انه يقصر المسافة بين الهند وانكلترا ألف ميل ، ويقلل المدة
 اللازمة لقطعها من عشرين يوماً الى عشرة أيام .
- ٣ - انه يسهل القبض على ناصية الامور في الهند بقليل من الحماية
 فيقلل تكاليف الخزينة .
- ٤ - انه يوفر على الحكومة مبالغ طائلة من مصاريف نقل جنودها عند

(١) وكان معروف حذرهم لم يتحقق بعد

وقوع حادث فجائي في أي فصل من فصول السنة .

٥ - انه يجعل بالامكان نقل الجنود من انكلترا الى الهند في أربعة

عشر يوماً .

٦ - انه يهدد مقدمة ومؤخرة أي جيش يتقدم نحو الهند ، ويجعل أمر

مهاجرتها واقتحامها أمراً عسيراً .

٧ - انه يمكن انكلترا ، لتقصيره المسافة ولزمن وتسهيله المواصلات ،

من القضاء على كل حركة عداوية في داخل الهند أو خارجها ، ويعزز نفوذها

في اوربا اذ يجعل في استطاعتها استخدام الجيش الهندي هناك .

٨ - انه يضع بقبضة انكلترا أقوى جبهة حربية في العالم ، ويجعل

آسيا الصغرى ويران منطقتي نفوذها .

٩ - ان سيطرة انكلترا عليه أمر متيسر اذ ان اسطولها يتسلط على

كلتا نهايتيه ، في الخليج الفارسي وفي ساحل البحر الابيض المتوسط ، كما انه

بطبيعة موقعه مأمون الجانب اذ يمر بين نهري نهرين عظيمين هما دجلة والفرات .

١٠ - ان الارض التي يمتد فيها صالحه جداً لمد الخطوط الحديدية

بحيث ان نفقات مد الميل الواحد منه لا تزيد عن عشرة آلاف ليرة

انكليزية ، ولا يربو مجموع المبالغ الذي يحتاج اليه المشروع على العشرة

ملايين .

وقد أيدت اللجنة البرلمانية في التقرير الذي قدمته عن هذا المشروع

الكثير من الفوائد الآتية الذكر وسجلات في تقريرها أم المقترحات بشأن

بدايته ونهايته وهي : (١)

- ١ - ان يبدأ من الاسكندرونه او السويدا ويمر بحلب ويقطع الفرات قرب قصر جابر ثم يمتد محاذياً ضفة النهر اليمنى وينتهي عند الكويت .
- ٢ - ان يبدأ من الاسكندرونه او السويدا ايضاً على ان يقطع الفرات في بياس ويمتد محاذياً ضفة النهر اليسرى الى مكان مقابل لبغداد حيث يقطعه ثانية ويسلك الطريق المذكور في الاقتراح الاول الى الكويت .
- ٣ - ان يقطع نهر الفرات في بير ويتجه الى اورفه وديار بكر حتى يصل دجلة فيسير محاذياً ضفتها اليمنى الى بغداد ثم يتجه غرباً حتى يقطع نهر الفرات ويتبع الطريق المذكور في الاقتراح الاول الى الكويت .
- ٤ - ان يمتد على الوجه المذكور في الاقتراح الثالث على ان يحاذي الضفة اليسرى لنهر دجلة .
- ٥ - ان يبدأ الخط من طرابلس الشام ويقطع الصحراء عن طريق الشام وتدمر الى الفرات ويمتد في احدى الطرق الآتية الذكر محاذياً للفرات . وقد ارتأى البعض ان تكون بداية الخط على البحر الابيض المتوسط في الاسكندرونه لصلاحها لرسو السفن ، واعترض آخرون على ذلك لكثرة الامراض في هذا البلد ولوعورة المسالك التي يمر منها الخط الخارج منه . واقترح البعض الآخر ان تكون السويدا بداية الخط بالرغم من ان مينائها غير صالح ، وذلك لخلوها من الامراض .

اما نهاية الخط على الخليج الفارسي فقد ارتوي ان تكون في الكويت
او البصرة او المهديرة او خور عبدالله او بوشهر ، الا ان كفة الكويت كانت
هي الراجحة واقترح البعض ان يوصل الخط بكراحي .
وارتأت اللجنة ان الخط الذي يمتد محاذياً مجرى الفرات يلائم المصالح
الدفاعية ، اما الذي يمتد محاذياً مجرى دجلة ويمر بديار بكر فاكثر لائمة
للمصالح التجارية .

هذه خلاصة قصة سكة حديد وادي الفرات التي بقيت مداراً للبحث
حوالي المائة عام ، وكانت من أهم العوامل التي ساقطت بريطانيا الى الاهتمام
بشؤون الشرق الادنى والخليج الفارسي ، وروجت فكرة حاجة الامبراطورية
الى السيطرة على بلاد الرافدين لضمان سلامة أقصر الطرق الى الهند .
